الفكر الإسلامي

مصادره وخصائصه

تأليف

دكتور

محمد عبد الغفار أحمد بدوي

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بالقاهرة ــ جامعة الأزهر الشريف

إهـــداء

أهدي هذا البحث إلى كل مفكر مسلم يفخر بدينه ويعتز بإسلامه وبكتاب ربه وسنة نبيه ﷺ .

وإلى كل منصف شهد بالحق الذي دعا إليه الإسلام بعد ما تبين له واتبع سبيل المؤمنين .

وإلى كل من دافع عن الإسلام ضد خصومه المعتدين الآثمين .

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل راجيا من الله أن ينفع به وأن يتقبلـــه بقبـــول حسن إنه نعم المولى ونعم النصير ..

د/ محمد عبد الغفار أحمد بدوي

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمـــد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فلعل من أهم الأسباب الكامنة وراء كتابتي في هذا الموضوع ما وجدته من تعد متعمد على الفكر الإسلامي واتهامه بالجمود وإنه لا يقوم علـــى أســـاس مـــتين أو مصادر أساسية يمكن أن تنميه وتطوره وتجعله قادرا على مواجهة الغير ، وغير ذلك مما يثيره أعداء الإسلام حول الإسلام وفكر المسلمين فكان هذا البحث الذي أسميته " الفكر الإسلامي مصادره وخصائصه " الذي أوضح بالدليل أن الفكر الإســـلامي منذ نشأته يقوم على الوحي والعقل في كل جانب من جوانبه ، فالفلســـفة وعلـــم الكلام ، والاقتصاد والسياسة والاجتماع وتفسير التاريخ وعلم الأخلاق والنفس ، وعلم أصول الفقه ، والتفسير والدراسات الفقهية وغير ذلك من العلوم والمعـــارف التي تناولها المفكرون والعلماء والباحثون الإسلاميون ، منذ نشأة الفكر الإســـلامي وحتى يومنا الحاضر ، تقوم على هذه المصادر الأساسية ولعل هذا سر نموه وتطـــوره ونضجه . وقدرته على مواجهة التيارات الفكرية المغرضة التي تريد هدم الإســـلام والقضاء على المسلمين .

إن ما لدينا من صرح علمي شامخ ، ومن ثورة فكرية منظمة دقيقة ، لتشـــهد بجهود العلماء الإسلاميين وبقدرة الفكر الإسلامي على العطاء والنمـــو والإنتـــاج والأصالة وسلامته من العقم والتوقف والجمـــود والتبعيـــة للغـــير ، وصـــحيح أن المسلمين استفادوا من تجارب الأمم في مجال الفكر والثقافة ، كالفلســـفة والكـــلام والمنطق وعلم الاجتماع والنفس والأخلاق والتاريخ وغيره إلا أنهم لم يستلموا هذا الإنتاج الإنساني كمسلمات علمية ، بل نقدوه وناقشوه وصححوه وأضافوا إليـــه وتوسعوا فيه بشكل يتناسب وما لديهم من فكر ومعتقد وفهم إسلامي ورأي أصيل، فحافظوا بذلك على أصالة الإسلام ، ونموه وإثرائه في آن واحد ، بالإضافة إلى مـــا ابتكروا وأسسوا واكتشفوا في هذا المجال ، فكانوا الرواد في وضع الأسس العلميـــة

للعلوم والمعارف الإنسانية وتأسيس مناهج البحث والتفكير العلمي وفق منهج عقائدي ونظرة إسلامية .

وهذا الضبط والتنظيم في بنية الفكر ومنهاج البحث والتفكير وتنسيق البناء هو من متطلبات وضرورات التفكير الإسلامي . ويمكننا أن نسجل الخدمات العظيمة التي قام بها العلماء والمفكرون الإسلاميون ، والمهام التي نهضوا بها كالآتي :

١ ـ الاستنباط والابتكار وتأسيس العلوم والمعارف .

٢ ـ الدفاع عن الفكر الإسلامي ورد الشبهات لتحقيق الأصالة والنقاء والاستقامة للفكر الإسلامي .

٣ ـ النقد للأفكار غير الإسلامية وكشف أخطائها وعجزها .

٤ ـ الاستفادة من الفكر الإنساني الذي يتفق وأسس وأصول الفكر والتفكير الإسلامي ولا يخالفه ، بعد غربلته وتنقيحه وهضمه وامتصاصه من قبل الفكر الإسلامي للتأكد من إزالة كل غريب عن روح الإسلام واتجاهه في الحياة ، بحيث يفقد عناصر الغربة في شخصيته ويدخل متجانساً مع الفكر الإسلامي وضمن بنية فكرية واحدة .

وقد جاء هذا البحث في أربعة فصول غير المقدمة التي أوضحت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري له وخطة البحث.

وأما الفصل الأول فيشمل التعريف بالفكر الإسلامي لغة واصطلاحاً وكاصطلاح حديث .

والفصل الثاني مكانة العرب الفكرية في الجاهلية وبعد مجيء الإسلام الفصل الثالث مصادر الفكر الإسلامي ، والفصل الرابع خصائص الفكر الإسلامي ثم فهرساً عاماً لأهم المراجع التي اعتمدت عليها أثناء البحث ثم فهرساً عاماً للموضوعات .

وأخيراً أسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه وأن يرزقنا حسن القبول .

د/ محمد عبد الغفار أحمد بدوي

الفصل الأول
التعريف بالفكر الإسلامي

أولاً : معنى الفكر لغة :

جاء في معاجم اللغة العربية عند مادة " فكر " ما يدل على أن كلمة الفكر اسم مأخوذ من الفعل فكر بالتشديد يفكر تفكيرا ، وجمعه أفكار ، ومعناه إعمال الخاطر في الشيء .

ويقولون إنها يمكن أن تأتي من باب : " ضرب يضرب ضربا كفكر يفكر فكرا أو فكرا بفتح الفاء كقولهم : مالي فيه فكر بالفتح أي حاجة .

ويقولون : يجوز أن يقال : فكر في الشيء وأفكرته ، أي جعلته يفكر أي يتذكر ، وفكر وتفكر ، وهو فكير كسكيت وفيكر كصيقل أي كثير الفكر .

ومنه الفكرة ، والفكري بكسرهما ، قال الراغب الأصفهاني : الفكرة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، والتفكر : جولان تلك القوة بحسب نظر العقل .

ويقول بعضهم : الفكر مقلوب عن الفرك ، لكن الفرك هو للأمور الحسية كما في فرك سنابل القمح ونحوها ، والفكر هو للأمور المعنوية ، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها [١] .

ولهذا روى : (تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره) [٢]

قال تعالى : (كذلك يُبَيِّنُ الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) البقرة ٢١٩ .

وقال ابن منظور : " الفكر إعمال الخاطر في شيء " [٣] .

ولهم كلام طويل عريض في قضية تحليل جذر الكلمة ، وبيان جمعها وتثنيتها ، ومتى يلحقه التعريف ومتى لا يلحقه لكننا لا نطيل فيه [٤] .

---

(١) انظر الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن / مادة فكر .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية مرفوعاً إلى النبي بسند ضعيف ومعناه صحيح .

(٣) ابن منظور / لسان العرب / مادة فكر ج ٦٥/٥ .

(٤) انظر العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ج ٣٥٨/٥ طبع دار الهلال سنة ١٤٠٢ م الطبعة الأولى تحقيق د/ مهدي المخزومي ، و د/ إبراهيم السامرائي ولسان العرب لابن منظور المصري

ثانيا : تعريفه الفكر اصطلاحاً :

للعلماء في تعريف الفكر عدة تعريفات متقاربة أهمها :

١ ــ الفكر تردد القوى المفكرة في الإنسان سواء أكان قلبا أو روحا أو ذهنا بالنظر والتدبر بطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء .

٢ ــ الفكر هو : إعمال العقل للوصول إلى معرفة مجهول .

٣ ــ الفكر هو : ترتيب أمور معلومة للتأدية إلى مجهول تصوري أو تصديقي [1]

ويلاحظ أن الفكر في هذه التعريفات مرتبط بالنفس وحدها وتركيز الذهن على ما يريد صاحبه حتى ولو كان بعيدا عما رسمه الله تعالى في كتابه وهدي رسوله. وآيات القرآن الكريم جاءت كلها تدعو إلى التفكير الذي هو تأمل عقلي فيما بينه

= ج ٦٥/٥ طبع دار صادر بيروت الطبعة الأولى ، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ج ٢١٣/١ طبع مكتبة لبنان بيروت سنة ١٤١٥هـ ١٩٩٩م تحقيق محمود خاطر ، والتعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني جـ ١/ ٨٨ نشر دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٤٠٥ هـ تحقيق إبراهيم الأبياري ، والقاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي فصل الفاء باب الراء ج ٥٨٨/١ طبع دار المعرفة لبنان سنة ١٣٩٩هـ الطبعة الثانية تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم و ج ١١٥/٢ طبعة دار الجيل بيروت ، والمصباح المنير لأحمد ابن محمد بن علي الملقب بالفيومي ج ٤٧٩/٥ طبع المكتبة العلمية بيروت سنة ١٣٩٩ هـ الطبعة الثانية تحقيق محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم .

(١) التصور هو حصول صورة الشيء في الذهن من غير أن تكون مصحوبة بالحكم عليها فإذا أبصرت أمامك شخصا فانطبعت في ذهنك صورة له من غير أن تحكم عليه بشيء من حكمه أو علم أو فهامة أو جهل أو طول أو قصر وما إلى ذلك فقد تصورته أي أدركته بدون أن تحكم عليه بشيء . وأما التصديق فهو حصول صورة الشيء في الذهن مع الحكم عليها بالنفي أو الإثبات فإذا قلنا مثلا حسان شاعر .. فقد تصورنا حسانا ثم تصورنا صفة الشاعرية ثم حكمنا عليه بأنه شاعر .

والتصديق هو إدراك النسبة الخبرية على وجه الجزم أو الظن مع المطابقة للواقع أو عدمها .

والادراكات التصورية والإدراكات التصديقية تنقسم كل منها إلى بديهية ونظرية . انظر المنطق والفكر الإنساني للدكتور عبد السلام محمد عبده ص ٣٧ وما بعدها طبعة سنة ١٩٨٠ ــ ١٩٨١م الطبعة الثانية .

الله من حجج دامغة وأدلة صادقة كقوله تعالى في المقارنة بين الأعمى والبصير :﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام / ٥٠) وعلى ذلك فالتفكر : تأمل عقلي لكنه مرتبط بالإيمان بالله فاطر السماوات والأرض وهو غير الفكر الذاتي ، أو التفكير العقلي المحض الذي يفصل بين العبودية والربوبية بدون علم ولا هدي يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {٨} ﴾ (الحج /٨) .

فالفكر الذاتي يحمل في طياته جدلا يبتعد فيه عن التفكر في آيات الله البينات وبذلك يجنح إلى الباطل ليدحض الحق ليظفر بتدبر ادعاءاته قال تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ (الكهف / ٥٦)

وبعد أن ذكرنا تعريف العلماء لكلمة (الفكر) والتي هي عبارة عن : حركة عقلية وقوة مدركة يكتشف الإنسان عن طريقها القضايا المجهولة لديه والتي يبحث عنها ويستهدف تحصيلها ، فتنمو معارفه وعلومه وأفكاره في الحياة ، نرى من المستحسن أن نلقي بعض الضوء على تعريفها .

توضيح تعريف الفكر :

ومما يزيد من إيضاح تعريف الفكر السابق ما أورده الإمام أبو حامد الغزالي حيث يقول : " إعلم أن الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستخرج منهما معرفة ثالثة " ، كأنه يريد أن يقول إنه تهيئة مقدمتين ليصل منهما إلى النتيجة كأن نقول " وأقيموا الصلاة " إذا أردت أن أحولها قضية فكرية أقول : أقيموا الصلاة أمر إلهي ، وكل أمر من الله سبحانه لعبادة فهو واجب ، فالصلاة واجبة .

فالمقدمة الأولى " أقيموا الصلاة أمر إلهي " دليلها هو أن الله طلب فعلها طلبا جازما فقال : وأقيموا الصلاة بصيغة فعل الأمر الذي يدل على طلب فعلها طلبا جازما ، والمقدمة الثانية " وكل أمر من الله سبحانه لعباده فهو واجب التنفيذ ، فالصلاة واجبة التنفيذ هذه النتيجة نقولها لمن لم يعرف حكم الصلاة أهي واجبة أم سنة .

ومثال آخر : صلاة الضحى صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ وتركها ، وكل ما كان كذلك ـ فعله الرسول ـ ﷺ ـ وتركه فهو من قبيل السنة لا الفرض . فصلاة الضحى سنة لا فرض .

فالمقدمة الأولى " صلاة الضحى صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ وتركها " دليلها تاريخي يظهر من تتبعنا لأفعال الرسول ـ ﷺ ـ والمقدمة الثانية بدهية لا تحتاج إلى دليل لأن الرسول ـ ﷺ ـ لم يترك واجبا . فالخلاصة أننا نحضر مقدمتين أو أكثر في بعض المعارف لنتوصل من المقدمات المعلومات إلى ما يسمى بالنتيجة أو المقدمة الثالثة ، هذا العمل هو ما نعبر عنه بأنه فكر .

مادة الفكر في القرآن الكريم [1] :

إذا تلونا آيات القرآن الكريم وتدبرناها آية آية لوجدنا أن مادة فكر وردت فيما يقرب من عشرين موضعا بصيغة الفعل الماضي، والمضارع ، وبصيغة المخاطب والغائب ، كقوله تعالى : " إنه فكر وقدر " (المدثر /١٨) وقوله تعالى : " لعلهم يتفكرون " (الحشر /٢١) وقوله تعالى : " أفلا تتفكرون " (الأنعام /٥٠) .

ولم ترد هذه المادة بصيغة الاسم ، ولعلها جاءت بصيغة الفعل دون الاسم لكي ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى أن هذا العمل الذهني الذي يسمى بالفكر إنما هو عمل مرتبط بذات مفكرة ، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكر ، وكلما وجد فكر وجد مفكر ، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون فيما لا طائل تحته ولا فيما لا نفع فيه ، وإنما من أجل أن نصل إلى شيء نافع في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة ، وأيضا أن الفكر خاصة من خواص الإنسان لا يشترك معه فيه أي مخلوق آخر ، فالفكر لا يطلق إلا على العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان ومبادؤها حسية ، أما الحيوانات فما تأتي به من مظاهر تشبه عملية الفكر لدي الإنسان لا تسمى فكرا وإنما تسمى بالتوجيه الغريزي ، لذا عرف المناطقة الأقدمون الإنسان بأنه حيوان ناطق أي مفكر ، أما بقية الحيوانات فلها التوجيه الغريزي ونحوه ، وهو الذي يقابل الفكر والذهن والقوى العاقلة عندنا .

نخلص من ذلك إلى نتيجة هامة وهي : أن القرآن الكريم حينما دعا إلى التفكر إنما دعا إلى العلم والمعرفة واكتشاف قوانين الفكر والطبيعة والمجتمع والحياة ، وبذا أعطى الحياة والحضارة والمعرفة الإسلامية صفة الحركية وهي سر النمو والتطور

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة فكر ص ٥٢٥.

والفاعلية والبقاء المؤثر في مسيرة البشرية ، كما إنها حصانة من السقوط والتوقف والغياب التاريخي .

ثالثا : الإسلامي : نسبة إلى الإسلام وهو مصدر أسلم ، ويستعمل في الشرع بمعنى الخضوع والانقياد لأمر الله والتسليم لقضائه وأحكامه والرضا بها ، وقد ورد أن الإسلام بهذا المعنى دين كل الأنبياء والمرسلين قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {١٣١}﴾ (البقرة /١٣١) وقال في حق عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {٥٢} ﴾ (آل عمران / ٥٢) وقال في حق نبينا محمد ـ ﷺ ـ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة /٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {٨٥}﴾ (آل عمران /٨٥) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ (آل عمران /١٩) .

ومعنى ذلك أن الفكر الإسلامي هو الذي يكون وفق مفاهيم الإسلام ومبادئه الثابتة بالنصوص الصحيحة القاطعة .

رابعا : مفهوم الفكر الإسلامي كمصطلح حديث :

بعد أو وقفنا على مفهوم الفكر عند علماء اللغة واتضح لنا أنه عبارة عن نتاج عملية التفكير ومحصلته العلمية نرى من المستحسن أن نقف على مفهوم الفكر الإسلامي كمصطلح حديث فماذا يقصد بهذا المصطلح ؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول : يقصد بمفهوم الفكر الإسلامي : " مجموعة العلوم والمعارف التي أنتجها العقل المسلم والقائمة على أسس وموازين إسلامية منذ مبعث الرسول ـ ﷺ ـ إلى اليوم في القضايا المطروحة .

أو " الفكر الذي أنتجه التفكير الإسلامي الملتزم بالأسس والموازين الإسلامية "

وهكذا ننتهي إلى نتيجة أساسية في مسألة تحديد مفهوم الفكر الإسلامي ووصفه بأنه إسلامي أو غير إسلامي فليس كل ما أنتجه المسلمون من فكر يصح أن

نصفه بأنه إسلامي ، إنما يوصف الفكر الذي انطلق من مفاهيم الإسلام الثابتة القاطعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، الملتزم بالإسلام فقط بأنه إسلامي ، وتنطبق هذه الحقيقة على بقية المصطلحات والمفاهيم كمصطلحات الثقافة والحضارة والعلم والمعرفة وكل إنتاج فني وأدبي أيضا كما انطبقت على كل إنتاج فكري ، فلا نسمي الإنتاج الأدبي بأنه أدب إسلامي ، إلا إذا كان أدباً ملتزما بالقيم والموازين الإسلامية ، وحاملا طابع الإسلام وروحه ، وكذلك لا نسمي كل فن ينتجه الفنانون المسلمون فنا إسلامياً ، إلا إذا كان فنا ملتزما بالقيم والموازين الإسلامية ومعبراً عنها ، قال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ {١٣٨}﴾ (البقرة /١٣٨) .

خامسا : التفكير الإسلامي :

بعد أن وقفنا على مفهوم الفكر لغة واصطلاحا والفكر الإسلامي كمصطلح حديث واتضح لنا إنه عبارة عن نتاج عملية التفكير ومحصلته العلمية نرى من المستحسن أن نقف عند قضية أساسية في حياة الأمة الإسلامية وأجيالها المتعاقبة وفي حياة البشرية ، وهي قضية (التفكير الإسلامي) فماذا نقصد بالتفكير الإسلامي ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول : التفكير الإسلامي هو الحركة العقلية التي تجري على أسس الإسلام والتي تستهدف تحصيل فكر إسلامي ملتزم . وبيان ذلك أن التفكير حركة عقلية تبدأ من المعلوم لتنتهي إلى اكتشاف المجهول ، فإذن أن هذه الحركة العقلية إذا ما مارست دورها في مجال المعارف الإنسانية كالفلسفة والتشريع وعلم الأخلاق والتوحيد ونظريات الاقتصاد والسياسة والأدب وعلم النفس الاجتماعي وفلسفة التاريخ ... الخ، ستمارس عملها كالآتي :

١ ــ الانطلاق من مبادئ ومقدمات محدودة المعالم حسب المجال الفكري الذي تتحرك فيه .

٢ ــ السير وفق منهج وطريقة معينة تتناسب ونظرة المفكر وطريقته في التفكير .

٣ ــ الانتهاء إلى نتائج فكرية محدودة الصفة والهوية .

فإن كانت هذه العملية الفكرية تنطلق من منطلقات ومقدمات فكرية إسلامية أو منسجمة مع الخط الإسلامي ، وسارت وفق منهج تفكير إسلامي ، واستهدفت تحصيل نتائج وفق هذه المقدمات وطريقة التفكير التي اعتمدتها ، مستهدفة الحصول على نتائج فكرية ذات طابع وهوية إسلامية ، سيكون هذا التفكير تفكيراً إسلاميا ، وأما إذا لم يجر التفكير وفق تلك المبادئ الإسلامية الثلاثة ، فلن نصفه بأنه تفكير إسلامي ، لأنه انطلق من مقدمات غير إسلامية وتحرك وفق منهج تفكير غير إسلامي ، وانتهى بصورة حتمية إلى نتائج غير إسلامية ، وإذن نستطيع أن نعرف التفكير الإسلامي بأنه : " كل حركة عقلية تجري على أسس إسلامية مستهدفة تحصيل فكر إسلامي ملتزم "

سادسا : الفرق بين التفكير العقلي الإسلامي والدين الإسلامي :

الذي يوضح الفرق بين الفكر العقلي الإسلامي والدين الإسلامي هو ما نعرفه من أن الدين الإسلامي وحيا إلهياً أوحاه الله إلى نبيه ورسوله الخاتم محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ لا تغيير فيه ولا تبديل ، وهذا يجعلنا نجزم بأن الدين الإسلامي ليس فكرا عقليا أو تصورا أو فلسفة لأن هذه المصطلحات عبارة عن إفرازات العقل الإنساني في تاريخه الطويل سواء تم هذا الإفراز في المجتمع الإسلامي أم في المجتمعات الأخرى ؛ لأنه يعتمد في مصدره على الوحي الإلهي وهو غير العقل . غير أن الفكر الذي اهتدى بداية الإسلام ونشأ في إطار ضوابط فهمه وقواعده تقلل إمكانية الخطأ فيه كثيرا عن إمكانية الخطأ في الفكر التائه الذي لا يضبطه ضابط يستند إلى عصمة الوحي الإلهي وأصوله [1] .

وسبب اختلاف الفكر الإسلامي عن غيره من حيث إمكانية الخطأ في كل يرجع في نظري إلى سببين هما :

الأول : أن الغرائز لدي الإنسان تعيق العقل عن حركته السليمة أو على الأقل تحجبه عن أداء وظيفته في الإدراك السليم لحقائق الأشياء ، بل تعطله أحيانا تعطيلا كاملا ، فلا يضع الأمور في أماكنها الصحيحة ، فينتهي إلى إلحاق الضرر

---

(١) يراجع الفلسفة الإسلامية في المشرق ، د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ٤٨ .

والظلم بنفسه وبغيره ، ومن هنا فإن حركة الفكر الإنساني تحتاج إلى محور ثابت من حقائق الأنفس والآفاق والقيم المنبثقة منها ، وهذا المحور الثابت لن نجده إلا في الوحي الإلهي الصادق المتمثل في صورته غير المحرفة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

الثاني : أن الإسلام يضع الحقائق الإلهية الكاملة أمام العقل في المجالات التي ليس له أن يجهلها أو يعطي حكما قاطعا فيها ، لكون ذلك العقل وجد أصلا لكي يكون عقلا عمليا يتحرك في إطار عالم المادة ، فيحاول الكشف عن قوانين أسراره ، ولذلك نجد العقل الإنساني عبر التاريخ حمل نفسه في تفصيلات قضايا العالم الغيبي " ما وراء الطبيعة " أكثر مما يتحمل فضل وتاه ، وكثر اضطرابه ولم يصل قط إلى يقين والدليل القاطع على ذلك آراء الفلاسفة والمفكرين في تلك التفصيلات الغيبية منذ أقدم العصور إلى اليوم ، فهي عبارة عن مجموعة من الأفكار المتضاربة المتصارعة والمتناقضة في كثير من الأحيان ، والتي تحمل تصور ذلك العقل المحدود في المجال المذكور ، ولنعطي قضية من قضايا العالم الغيبي شيئا من التفصيل حتى نقف على انحراف العقل الذي لم يهتد بهداية الوحي في مثل هذه القضايا " هذه القضية هي : قضية الألوهية والعلم المادي " .

إن قضية الألوهية تعتبر من العلامات البارزة على عدم قدرة العقل على الوصول إلى اليقين في هذه القضية التي هي فوق إدراكه ، وأن أي محاولة لإقحام العقل فيما ليس من شأنه أن يلم به فضلا عن أن يحيط بكنهه في قضية الذات الإلهية تعتبر محاولة فاشلة ، وأن من يعرف قدر نفسه وقدرات عقله لا يمكن أن يقتحم ميداناً ليس بطبيعته مؤهلا لاقتحامه ، ولا قدرة له على الخوض فيه ؛ لأن المحدود لا يتسنى له أن يحيط بغير المحدود ، والفاني لا قدرة له على الإحاطة بحقيقة الأزلي والأبدي حيث لا بداية ولا نهاية ولا حدود ، إنما يستطيع العقل أن يتصور ذلك لونا من التصور وأن يدرك أنه يمكن أن يوجد على هذه الصورة . أما أن يحيط بكنهه على أي نحو من الأنحاء فقضية أخرى خارجة عن نطاق العقل ، وهي التي تقول إن احترام العقل لذاته ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته .. هي التي توجب عليه أن يتجنب الخوض فيها لأنه لن يصل فيها إلى شيء له اعتبار [1].

---

(١) راجع العقائد الإسلامية للسيد سابق ص ٣٣ بتصرف .

وليس معنى هذا أن الدين كله أمر خارج عن نطاق العقل أو أن الاعتقاد في وجود الله ومعرفة صفاته أمر لا نصيب فيه للعقل.

كلا .. إنما يدخل العقل إلى هذا الميدان من بابه الذي هو مؤهل بطبيعته أن يدخل منه ، لا من الباب الذي لا يقدر على فتحه ، والذي يضل فيه لو اقتحمه بغير أداته ! يدخل من باب إدراك آثار القدرة الإلهية والاستدلال من هذه الآثار على وجود الله ومعرفة صفاته التي يتفرد بها دون الخلق ، ولكن لا يدخل من باب الكنه الذي لا يقدر عليه ولا يصل إلى نتيجة فيه [١].

أرأيت لو أنك نظرت إلى ميدالية مفاتيحك فوجدت فيها المفتاح الصغير الذي تفتح به الحقيبة التي تحمل فيها أوراقك ثم قمت بإدخال هذا المفتاح في قفل باب شقتك وهو بالطبع أكبر منه فهل يمكن أن نفتح هذا القفل بهذا المفتاح ؟

والجواب معروف إن المفتاح الصغير غير صالح لفتح جميع الأبواب والأقفال ولو ظللنا دهورا ندير المفتاح في القفل فلن نفلح في ذلك ، ولذا نبحث عن مفتاح الشقة في سلسلة المفاتيح حتى نعثر عليه ، ونحتفظ بمفتاح الحقيبة لفتحها به دون سواها وبناء عليه نقول : إن العيب ليس في القفل ولا في المفتاح ! إنما العيب في أننا نحاول أن نقتحم به بابا لا يقدر على اقتحامه !

وحين أصرت الفلسفة اليونانية ــ ومن تبعها بعد من فلاسفة النصارى وفلاسفة المسلمين ــ أن يقتحموا باب كنه الذات العلية بمفتاح العقل ، فقد وصلوا جميعا إلى ذلك التخبط الذي يملأ كتب الفلسفة كلها من أول التاريخ إلى آخره !

فأرسطو الذي يعتبره دارسوا الفلسفة أعظم " عقل ، وصاحب التفكير الناضج " في التاريخ القديم ، يصف إلهه ــ بعقله ــ على هذه الصورة : كائن أزلي أبدي مطلق الكمال لا أول له ولا أخر، ولا عمل له ولا إرادة [٢].

يقول " العقاد " في كتاب " حقائق الإسلام وأباطيل خصومه " : " ومذهب أرسطو في الإله أنه كائن أزلي أبدي مطلق الكمال ، لا أول له ولا أخر ، ولا عمل له ولا إرادة ، منذ كان العمل طلبا لشيء والله غني عن كل كلب ، وقد كانت

---

١) المرجع السابق ص ٢١ .

٢) راجع مشكلة الألوهية للدكتور محمد غلاب ص ٣٨ طبع دار إحياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الإدارة اختيارا بين أمرين والله قد اجتمع عنده الأصلح والأفضل من كل كمال فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يتبدئ العمل في زمان لأنه أبدي سرمدي لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا أخر ولا جديد ولا قديم وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ولا تخرج عن نطاقها عناية تعنيه . فالإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهي " الهيولي " ولكن هذه " الهيولي " قابلة للوجود يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها ، فتتحرك بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها أنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار [1] .

ويعلق العقاد ـــ بصدق ـــ على هذا التصور فيقول : " كمال مطلق لا يعمل ولا يريد . أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء .. "[2]

---

(١) ص ٣٣ ـــ ٣٤ من طبعة دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٦٩م .

(٢) ص ٣٤ من المرجع نفسه .

الفصل الثاني
مكانة العرب الفكرية في الجاهلية

قبل الحديث عن مكانة العرب في الجاهلية يحسن بنا أن نذكر ونوضح مفهوم كلمة جاهلية [١] في اللغة والاصطلاح :

أولا : الجاهلية في اللغة المتأمل في كتب اللغة يلحظ ورود اتجاهين لمعنى الكلمة التي اشتقت منها كلمة الجاهلية :

الأول : أن الجاهلية مأخوذة من لفظ الجهل الذي هو ضد العلم والمعرفة ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (البقرة / ٢٧٣) .

الثاني : مأخوذة من الجهل الذي هو السفه أي ضد الحلم . وهو شدة الأنفة والخفة . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً {١٧} ﴾ (النساء / ١٧) [٢] .

والواقع أنه لا تعارض بين الاتجاهين لأن العرب قد أطلقت الجهل على المعنيين كما أن بينهما صلات وروابط ، إحداها معرفي والآخر أخلاقي .

وقد استخدمت لفظة الجاهلية كوصف للاعتقاد في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ ﴾ (آل عمران / ١٥٤) .

واستخدمت لوصف الحكم في قوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ {٥٠} ﴾ (المائدة ٥٠) .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام والروض الأنف للسهيلي وطبقات ابن سعد والفكر الديني الجاهلي للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص ٢٧ ، والجاهلية حالة موضوعية أم فترة تاريخية لهشام جعفر ص ١٠

(٢) راجع لسان العرب لابن منظور جـ ١/٧١٤ . مادة جهل

والتبرج في قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب / ٣٣) ، ولوصف الحمية في قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً {٢٦}﴾ (الفتح / ٢٦) .

الجاهلية في الاصطلاح :

هي الحالة التي كان عليها مشركو العرب قبل الإسلام من الجهل بالخالق سبحانه ومن المفاخرة بالأنساب وما كانوا عليه من أخلاق وعادات ونحوها[١]

الحياة الفكرية عند العرب قبل الإسلام [٢] :

وبعد أن وضحت مفهوم الجاهلية يحسن بنا أن نتحدث عن فكر العرب قبل الإسلام وعندما نتحدث عن فكر العرب ينبغي علينا أن نتعرف على تاريخهم قبل الإسلام كيف كانوا ، وكيف أثر القرآن الكريم فيما بعد على تفكيرهم ، فنقول دأب بعض مفكري المسلمين ــ عافاهم الله ــ على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام ، وتصويرهم في صورة منكرة ، وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة في القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية ، بحيث قدموا ذلك العربي عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية ، حتى باتت صورته في ذهن كثير من أبناء هذا الجيل من المثقفين والكتاب وغيرهم ، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية ، وقد بدأ لهؤلاء إن القدح في شأن عرب قبل الإسلام ، وإبرازهم بتلك الصورة المزرية ، هو فرش أرضية الصورة بالسواد ، لإبراز نور الدعوة الإسلامية بعد ذلك ، وكلما زادوا في تبشيع عرب الجاهلية ، كلما كان الإسلام أكثر استضاءة وثقافة وعلما وخلقا وتطورا على كل المستويات . وإن الأمر بهذا الشكل يبعث أولاً على

---

(١) هذا التعريف يعتمد على اعتبار الجاهلية فترة انقضت ولا يمكن تكرارها فهي فترة مكانية زمانية محددة تنطبق على المشركين من القبائل العربية قاطني الجزيرة العربية قبل بعثة النبي ﷺ . راجع الجاهلية حالة موضوعية أم فترة تاريخية لهشام جعفر ص ١٥ .

(٢) راجع محاضرات في التيارات الفكرية للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص ١٥ وتمهيد للفلسفة للدكتور محمود حمدي زقزوق ص ٨٩ طبعة رابعة دار المعارف سنة ١٩٩٢م .

الشعور بالفجاجة والسخف ، ثم يجافي أبسط القواعد المنطقية للإيمان ، فالإيمان يستدعي بداية قيمته من دعوته ، ومن نصه القدسي ، وسيرة نبيه ، فقيمته في ذاته ، قيمة داخلية ، وليست من مقارنته بآخر ، أما الأنكى في الأمر ، فهو أن تتم مقارنة الإلهي بالإنساني ، لإبراز قيمة الإلهي إزاء نقص الإنساني ، في تلك الحال ستكون ظالمة لكليهما : الإلهي والإنساني . فالإلهي لا يقارن بغيره كما إن مقارنة الإنساني به فداحة في التجني على الإنساني بما لا يقارن مع الإلهي .

وقد فطن (الدكتور طه حسين) إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه في كتابه الأدب الجاهلي مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية العرب قبل الإسلام ، وكيف أن تلك الفكرة أرادت تصوير العرب كالحيوانات المتوحشة لإبراز دور الإسلام في نقله الإعجازي هؤلاء الأقوام المتوحشين ، فجأة ودون مقدمات موضوعية ، إلى مشارف الحضارة ، فجمعهم في أمة واحدة ، فتحوا الدنيا وكونوا إمبراطورية كبرى ، هذا بينما القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة في المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح إلى أن العرب لم يكونوا كذلك وفي تطورها الإنساني ، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيههم ، فهو الأمر الأشد فجاجة في الرؤية ، فيكفينا أن نلقي نظرة حولنا ، على الإنسان وهو في بداية قرنه الحادي والعشرين ، لنجده لم يزل بعد يعتقد في أمور هي من أشد الأمور سخفا [1].

معارف العصر الجاهلي :

المطالع لأخبار ذلك العصر ، في كتب الأخبار والتاريخ ، سيجد في الأخلاق مستوى رفيعا النبالة ذاتها ، وسيجد المستوى المعرفي يتقارب تماما مع المستوى المعرفي للأمم من حولهم ، وإن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الأمم معارفهم الخاصة، فقط كانت تشتتهم القبلي وعدم توحدهم في دولة مركزية ، عائقا حقيقيا دون الوصول إلى المستوى الحضاري لما جاورهم من حضارات مركزية مستقرة ، وهو الأمر الذي أخذ في التطور المتسارع في العصر الجاهلي الأخير نحو التوحد في أحلاف كبرى ، تهيئة للأمر العظيم الآتي في توحد مركزي ودولة واحدة كبرى [2].

---

[1] راجع : الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص ٧٩ طبعة عاشرة دار المعارف بمصر

[2] راجع : محاضرات في التيارات الفكرية للدكتور الفيومي ص ١٥ .

فعلى مستوى المعارف الكونية ، كان لدي العرب تصورات واضحة ، تضاهي التصورات في الحضارات حولهم : فالأرض كرة مدحاة ، والسماء سقف محفوظ ، تزينه مصابيح هي تلك النجوم ، وفيه كواكب سيارة ، أطلقوا عليها (الخنس الجواري الكنس) فهذا (زيد بن عمرو بن نفيل) يحدثنا عن التصور الكوني المعروف في بلاد الحضارات ، في قوله :

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

بينما نجد (أمية بن عبد الله الثقفي) يصور لنا ما درج عليه العالم القديم من تصور لسماء سقفا بلا عمد ، وإنها طبقات سبع ، وإن الشهب فيها حماية ورصدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى ، وذلك في قوله :

بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يزين ولا حيال

سواها وزينها بنور من الشمس المضيئة والهلال :

ومن شهب تلألأت في دجاها مراميها أشد من النضال

وعلى مستوى أبحاث ما وراء الطبيعة فقد كان للعرب قبل الإسلام من خلال ما تدل عليه آثارهم الأدبية : تشبث بأنواع من النظر العقلي الذي يشبه أن يكون من أبحاث ما وراء الطبيعة التي يحثها الفلاسفة فقد ذكروا الرب تعالى وبعض صفاته والموت والدار الآخرة ، وقدم العالم والأرواح والملائكة والجن والبعث وغيرها ، والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أثر حياة العرب العقلية المتطورة واضحا فيها والتي صورتهم يجادلون ويخاصمون كأقوى ما يكون الجدل والخصام حول مسائل شائكة كالروح والقدر وصفات الله والمعجزات الخ .. كل ذلك راجع إلى اتصال عرب الجاهلية بالعالم المعاصر لهم عن طريق التجارات الغادية والرائحة من ناحية واتصالهم باليهود والنصارى الذين دخلوا الجزيرة العربية ، غير أن هذا الاتصال بالأمم الأخرى رغم كثرة وسائله كان ضيقا بسبب تفاوت المستوى العقلي والاجتماعي بين العرب الذين يسكنون الصحراء وبين الروم والفرس ، ثم انتشار الأمية بين الجاهليين هذا عدا ما يلحق النقل الشفهي للمعارف والأفكار من تشويه وتحوير .. لذلك لا يمكن أن نصف تفكيرهم بأنه تفكير يقوم على التركيب

والتحليل واستقراء النتائج ولذلك حكم كثير من مفكري العصر بأن العرب لم يكن لهم تفكير وإنما كل ما أثر عنهم لا يعدو خواطر وسوانح فكرية لا تتعدى أن تكون تعبيرا عن تجارب أو تعبيرا عن بديهيات [1] .

ويمكننا القول بعد ما قدمناه ومن خلال ما جاء في القرآن الكريم الذي يعتبر أصدق مرآة تصور الحياة الجاهلية كما يوضح ذلك كثير من المفكرين في القديم والحديث أمثال : الجاحظ وطه حسين وغيرهما ، وأن العرب قبل مجئ الإسلام كانوا أهل فصاحة وبلاغة ورجاحة عقل .

يقول الجاحظ : وذكر الله تعالى حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول ، وذكر العرب وما فيها من دهاء ومكر ، ومن بلاغة اللسان واللدد عند الخصومة قال تعالى : ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ (الأحزاب /١٩) .

ويؤكد جورجي زيدان ما قاله الجاحظ فيقول : وقد يتبادر إلى الذهن أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب ولكن يظهر أنهم كانوا كبار العقول أهل ذكاء ونباهة وحنكة وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهي تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظراتهم في الطبيعة وأحوال الإنسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة " .

ويقول الدكتور طه حسين : أن مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن الكريم لا في الأدب الجاهلي ، لأن القرآن حين رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية ، ورد على اليهود، ورد على النصارى ، ورد على الصابئة والمجوس إنما رد على أتباع هذه المعتقدات في جزيرة العرب ، وفي مكة ويثرب بشكل خاص ، وإلا لما حفل بهذا الرد على سكان هاتين المدينتين وما جاورهما من مناطق سكنية ؛ لأن الأمر لا يعنيهم مباشرة ، والقرآن إذن هو الذي يمثل لنا الحياة الدينية القوية التي دعت أصحابها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل ، وهو الذي يمثل العقلية القوية القادرة على الجدل والخصام والخوض في المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة

---

(١) انظر محاضرات في التيارات الفكرية للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص ١٧ .

فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها : في البعث ، في الخلق ، في مكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما إلى ذلك ، وهو الذي يمثل لنا الحياة السياسية حين يحدثنا عن اتصال عرب الجزيرة بمن حولهم من الأمم ، هذا الاتصال القوي الذي قسمهم أحزابا وفرقهم شيعا ، وجعلهم يعنون بسياسة الفرس والروم والحبش والهند وتتبع أخبارهم ، وهو الذي يمثل لنا الحياة الاقتصادية ، فيقسم العرب إلى فريقين : أغنياء مستأثرين بالثروة مسرفين في الربا ، وفقراء معدمين ، ... وهو الذي يمثل لنا الحياة الاجتماعية حين يقسم العرب إلى طبقتين : طبقة المستترين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم ، وطبقة العامة الذين لا يكادون يكون لهم من هذا كله حظ، وحين ينظم ويدعو إلى بر الوالدين ، ويحدد العلاقات بين الرجل والمرأة ، ويفصل بالإرث ، ويحبب تحرير الرقيق إلى النفوس ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق [1].

وإذا كان القليل من العرب شغل نفسه بالتفكير الديني وغيره من الاشتغال بالشعر والحكمة والخطابة كما كانت لبعضهم بعض المعارف كمعلم النجوم ، وعلم الأنواء والطب والبيطرة والكهانة والعرافة وغيرها من العلوم النظرية والعملية الغالبية العظمى منهم كانوا من البدو الرحل الذين يجوبون الصحراء ويرتحلون وراء الكلأ والمرعى والهروب من حياة الصحراء القاسية قد ابتعدوا عن التفكير إلى حد ما ، ومهما يكن فلا يمكن أن نغفل تفكير العرب قبل الإسلام وأنهم أصحاب فكر وإن جانبه الصواب في أكثره .

ومما ورد عنهم نثرا في المظاهر الكونية تقول الزبراء : " واللوح الخافق والليل الفاسق ،والصباح الشارق ،والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأود خبتا ، ويرق أنيابا عملا ، وإن صخر الطوا لينذر ثقلا ، لا تجدون عنه معلا "

وما جاء في وصف " ربيعة بن ربيعة " ليوم البعث والنشور، بقوله : "يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون ، وهو ذات الرجل الذي يقسم بصدق قوله : " والشفق والغسق" والفتل إذا اتسق ، إن ما

---

(١) راجع : في الأدب الجاهلي لطه حسين ص ٧٠ والتفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٦ .

أنباتك به لحق " أما (شق بن صعب) فيصف ذات اليوم بقوله " يـوم تجـزي فيـه الولايات " يدعي فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات " .

ويقسم (ابن صعب) لسائله بأنه يقول الحق : " ورب السماء والأرض ، ومـا بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبتك به لحق ، ما فيه امض " أما الكاهن الخزاعـي الذي احتكم إليه هاشم وأمية في نزاعهما ، أصدر قراره سجعا يقول : " والقمـر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من ستجد وغائر ، قد سبق هاشم أمية إلى المفاخر" .

أما " قس بن ساعدة " فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية في نثـره قائلا : " ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخـر ، وأرض مدحاة ، وأنها مجردة ، إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا " كل هذا يدل على أن العربي كان حريصا على تقديم معارفه وثقافته شعرا ونثرا وأن لهم علوم وثقافة .

الحياة الدينية والخلقية عند العرب قبل الإسلام :

من المعلوم إن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها ، مـع قصور تجربته ومعرفته ، كان هو الدافع لتصور قوى غيبية تقـف وراء مـتغيرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها ، لأن تلك الظواهر لم تكن مفهومـة ، ولـذلك ارتبطت عقائد الناس في أربابها بوسطها البيئي ، حيث عبرت عن ذلـك الوسـط وأظهر مظاهرة وأكثرها تكرارا ، ومن هنا قدس العربي إجرام السماء الـتي تظهـر بكل وضوح في ليلة الصحراوي المنبسط ، دون حواجز حتى الأفق بدائرته الكاملة، كما قدس أحجارا خاصة ذات السمات المتفردة منها ، فبيئتـه رمـال وصـخور وأحجار ، وقد غلب انتشار الصخور البركانية في جزيرة العرب لانتشار السراكين فيها ، وأطلقوا عليها اسم الحرات من الحرارة والانصهار .

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة ، أدى إلى تباين ظـروف البيئة والمناخ ، مما أدى إلى تعدد مماثل في الظواهر ، وبالتـالي تعدديـة مفرطـة في

العبادات ، هذا ناهيك عن وعورة المسالك في الجزيرة ، والتي أدت إلى مـا يشـبه العزلة لمواطن دون مواطن ، خاصة تلك التي في الباطن ، ممـا أدى إلى احتفاظهـا بألوان من العقائد الموغلة في قدمها وبدائيتها نتيجة عـدم الاحتكـاك بالثقافـات الأخرى التي تساعد على تطور الرواسب المعرفية من ثم العقائدي .

التعدد في العبادة :

وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة أجرام السماء وعبادة الأحجار والصخور ،بقايا من ديانات بدائية كالفيشتية والطوطمية، وعبادة الأوثان وعبادة الأسلاف .

أما الفيشتية فهي أكثر ديانات الجزيرة انتشارا بين أهلها ، وهي تقدس الأشياء المادية كالأحجار ، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها ، أو لأنها قادمة من عالم الآلهة في السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الآلهة في السماء أو من بـاطن الأرض حيث عالم الموتى ، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام .

وأما الطوطمية ، التي تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان مـا مقـدس ، فنظهر في مُسميات قبائل العرب ، مثل (أسد ، فهد ، يربوع ، ضبة ، كلب ، ظبيان .. الخ) لذلك كانوا يحرمون لمس الطوطم أو حتى التلفظ باسمه ، لذلك كانوا يكنون عنه ، فالمذوغ يقولون عنه السليم ، والنعامة يكنى عنها المحلي ، والأسد أبي حارث ، والثعلب بن آوى ، والضبع أم عامر ، وهكذا ، هذا إضافة إلى تقديس الأشجار ، مثال ذات أنواط التي كانوا يعظمونها ، ويأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعلقـون عليها أسلحتهم وأرديتهم .

كذلك عبد العرب كائنات أسموها (الجن) خوفا ورهبـة ، ودفعـا لأذاهـا ، وظنوها تقطن الأماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر ، وكان العربي إذا دخـل إلى موطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله : عموا اطلاها ، ويقف قائـد الجماعـة ينادي : إنا عائذون بسيد هذا الوادي ، وتصوروا الجن كحال العرب فهم قبائـل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم ، يتقاتلون ويفرز بعضهم بعضـا وهـم سـادة وشيوخ وعصبيات ، وهم من صفات احر بأن كثير ، فهم يرعون حرمـة الجـوار ويحفظون الذمم ويعقدون الأحلاف .. وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف ، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون ، وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة ، حيث كثر

الهواتف أي الأصوات التي تنادي بأمور وتنبئ بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئي .. وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فزعموا إنهم يتلقون وحيهم عن الجن ، وإن الجن بإمكانها الصعود إلى السماء والتنصت على فصائر البشر في حكايات الملأ الأعلى مع بعضهم عمن في الأرض ، وإن الكاهن بإمكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقا من الجان .

كما كانت حياة العرب مليئة بأنواع أخرى من الديانات والمعتقدات أمثال : الحنيفية والوثنية واليهودية والمسيحية والصابئة والمجوس جمعت كلها في آية واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (الحج /١٧) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الجزيرة العربية قبل الإسلام لم تكن بمعزل عن التفكير الديني بدليل وجود هذه الأديان والمعتقدات كلها فيها [١].

ومما لاشك فيه أن هذه الأديان كلها وافدة إلى الجزيرة العربية من الخارج نتيجة الاختلاط بين الشعوب بعضها ببعض فالمسيحية واليهودية ديانتان سماويتان كانتا خارج الجزيرة العربية كما يعرف الجميع ، والصابئة ديانة الحرانيين وهي خارج الجزيرة العربية ، والمجوسية ديانة الفرس ، والوثنية إغريقية والحنيفية اتباع بقايا الخليل إبراهيم .

الأخلاق العربية قبل الإسلام[٢] :

وأما أخلاقهم فقد كانت في مجموعها نتيجة للوضع الاجتماعي والاقتصادي وصدى للبيئة القبلية الشحيحة الموارد ، ويرى المستشرق " جولد زيهر " أن جماعها

---

[١] محاضرات في التيارات الفكرية د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ١٩ طبعة ٢٠٠٣م .

[٢] راجع : الملل والنحل للشهرستاني ص ٥٨٣ ــ ٥٨٤ ومدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها للدكتور / محمد جلال شرف ص ٥٩ ــ ٦١ طبع دار المعرفة الجامعية ص ١٩٩٠ ودراسات أخلاقية للدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور ص ١٣٠ ــ ١٣٧ طبع سنة ١٩٩٢ والأخلاق بين العقل والنقل للدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي ص ١٩٧ وما بعدها طبعة أولى سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨ دار الثقافة العربية القاهرة .

يمكن أن تشمله كلمة المروءة والفضائل العليا في كل مجتمع تنتج دوما من الحاجات، ويكون الخلق عادة كالضمان المعنوي والمؤيد لتلك الحاجة .

والعربي المثالي شجاع ، سريع النجدة حتى التهور ، لا ينام على ثأر ، كريم حتى الإسراف ، لا يعرف شحا ولا بخلا ، ولا يعرف هلعا ولا خوفا ، وفي العهد ، ينصر الجار ويحمي الضعيف ، ويغيث الملهوف ، لا يحسب للموت حسابا ويعفو عند المقدرة هذه بعض أخلاقهم ولقد كانت أكثر الرذائل في حياتهم الاجتماعية فضائل تطرفوا فيها ولم يتوسطوا وبالغوا ولم يعتدلوا فالإسراف تطرف في الكرم ، والتهور تطرف في الشجاعة ، والظلم يأتي أحيانا من باب نصر القريب أو الغريب بإيقاع الظلم الذي هو تجاوز كل حدود الاعتدال .

التفكير عند العرب بعد مجئ الإسلام :

جاء الإسلام والعرب لم يكن لهم تفكير منظم قائم على أسس غير أن القرآن الكريم حولهم إلى أصحاب عقلية عملاقة وتفكير ثاقب وبصيرة نافذة لعبت دورا منقطع النظير في حياة العرب الفكرية وبصرهم بأمور دينهم ودنياهم وفتح لهم الطريق للوصول إلى ماهية الأشياء وحقائق الأمور وجعلت لهم علما لا يستهان به وفتحت نفوسهم على أبواب المعرفة والتطلع وحثهم نحو البحث والاكتشاف اللذين يولدان الإبداع من هنا كان تفكير العرب في صدر الإسلام .

يقول جعفر بن أبي طالب للنجاشي عندما أحضر جماعة المهاجرين إلى الحبشة ليسألهم عن دينهم الذي فارقوا فيه قومهم وبقية الملل : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على

ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم فقال النجاشي : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدرا من سورة " كهيعص " فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ... والله لا أسلمكم [1] .

والمتدبر في هذا النص يجد أثر الإسلام على العرب كبيرا حتى كان عهد الإسلام بالنسبة لما قبله كالحياة بعد الموت وكالنور الساطع بعد الظلام الدامس ، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١٢٢}﴾ (الأنعام /١٢٢) .

التفكير في عهد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين :

في بداية البعثة الإسلامية التي بدأت بنزول الوحي على الرسول الكريم محمد ـ ﷺ ـ وانطلاق الدعوة الإسلامية في محيط من الجهل والتخلف والأمية ، لم يكن لدي المسلمين من معارف وعلوم وفكر غير ما حوى كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ـ ﷺ ـ وهما كما هو واضح يشكلان المعين الفكري الذي لا ينضب ، والأساس والقاعدة اللذين استنبط منهما الفكر والمعرفة الإسلاميين نتيجة حركة التفكير والاجتهاد والابتكار ، وشيد عليها صرح البناء الفكري والحضاري للمسلمين وللبشرية أجمع والتي أصبحت مدينة في تطورها العلمي والمدني للإسلام ورسالته .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٣٣٦/١ .

ونستطيع القول أن أول فاتحة للفكر الإسلامي تمثلت بعلم التفسير ، فقد كان المسلمون على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ يلجئون إليه ـ ﷺ ـ لفهم القرآن الكريم ومعرفة دلالات الآيات ، وهذا العطاء النبوي هو جزء من السنة النبوية الشريفة ، أساس من أسس الفكر ، وبما أن حركة الفكر والمجتمع بدأت تنمو بوحي من حركة الرسالة نفسها ، وكانت بداية هذه الحركة في إطار القرآن التي تمثلت في محاولة فهمه واستخراج معانيه وتفسير دلالاته ، لذا فقد نشأت بدايات علم التفسير والتأويل والاختلاف في الفهم واستنباط المعاني ومقصود القرآن وأسباب نزوله .

فكان المسلمون بعد رسول الله ـ ﷺ ـ يلجئون في فهم القرآن إلى أبرز صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ علما ومعرفة بالقرآن ، وكان في طليعتهم الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، ثم كان في تلك الفترة أيضا كثير من الصحابة كعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن عمر وآخرين أمثالهم من جيل الصحابة كل قد ساهم في التفسير بما تيسر له من فهم واستيعاب للقرآن الكريم ومضامينه ودلالاته [1].

وإلى جانب هذه الباكورة والانطلاقة الفكرية ، كانت حياة المجتمع تتطور ، وحاجته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمالية التي تتعلق بشؤون الحكم والمال والتجارة والقضاء والمواريث والزواج والطلاق ، الخ ، كما كانت تظهر قضايا تتعلق بشؤون العبادة ، كالطهارة والنجاسات والحضر والسفر والشك في الصلاة وغيرها ، وكان المسلمون في هذه الحالات يحتاجون إلى الأحكام والفتاوى ، فبدأ يتوسع في الفقه [2]، وبدأت بواكير الاستنباط عند بعض الصحابة ، وفي هذه الفترة بدأت بدايات أولية لتدوين الفقه ، فقد روى أن أبا رافع مولى رسول الله ـ ﷺ ـ كان قد كتب كتابا في المواريث وهكذا بدأت بدايات الاجتهاد والإنتاج الفكري في هذين الحقلين بعد وفاة الرسول الكريم ـ ﷺ ـ ثم أخذ الاجتهاد في فهم نصوص

---

[1]) راجع علوم القرآن الكريم للدكتور إبراهيم زيد الكيلاني ص ٢٢٨ طبعة أولى سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ طبع وزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان .

[2]) راجع : الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب للدكتور عبد المعطي بيومي جـ ١/٧٧ .

القرآن والسنة عند البعض يفرز أخطاء ويقود إلى تصورات متباينة في شؤون العقيدة والتوحيد وما يرتبط بهذا الجانب من مسائل تتعلق بالهدى والضلال والجبر والاختيار والقضاء والقدر والعقاب والثواب .. الخ ، فنشأت بدايات وبذور الاختلاف في الفتوى ومسائل العقيدة والتفسير ، لتكون أصولا ومنطلقات لمدارس فكرية وفقهية وتفسيرية فيما بعد ، وأخذت آفاق الفقه والتفسير ومسائل العقيدة تتسع وتأخذ مدارات أوسع ؛ فبدأت بواكير مذهب المرجئة والمعتزلة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري إلى جانب الخط الفكري الذي كان يلتزمه كبار الصحابة ومن تابعهم على ذلك ثم أخذ الإنتاج الفقهي والتفسير وتدوين الحديث والسير والمغازي وأصول الفقه يأخذ شكلا أكثر نضجا وتطورا .

وعندما أطلع المسلمون على فكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومفاهيم اللاهوت ، بدأ النقاش والحوار والرد ، وبدأت الحركة الفكرية العقائدية تأخذ طابع رد الشبهات وتصحيح الاعتقاد وتثبيت الأصول ، فنشأ الكلام والجدل العقائدي ليتطور فيصل إلى مرحلة علم الكلام [1]، ثم بدأ التصنيف والتأليف الأكثر تطوراً ونضجاً من الناحية الفنية ، والأوسع شمولاً في مادته ومسائله في علم الفقه والتفسير وأصول الفقه ، وفي القرن الثاني الهجري ، وعندما بدأت الترجمة والنقل عن الأمم والحضارات غير الإسلامية ، كترجمة الفلسفة والمنطق عن اليونان وبدأت هذه الأفكار تأخذ طريقها إلى المجتمع الإسلامي ، تناولها العلماء المسلمون بالنقد والمناقشة والتقويم ، بالإضافة إلى أنها جعلت أئمة العلم والعلماء والمفكرين يلجئون إلى وضع الأسس الفكرية وتأليف الكتب وملء حلقات الدرس بالمعرفة والفكر الإسلاميين ، وبدأت الانطلاقة الفكرية بشكلها الحيوي في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني الهجريين [2].

---

(١) راجع التفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٨٧ ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي سامي النشار ص ٤٤ وابن حزم في الفصل ص ١٢٤

(٢) راجع : تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية لعبده الشمالي ص ١٥٦ .

وهكذا بدأ صرح الفكر الإسلامي يتكون ، مارا بمرحلة الولادة والنمو والاكتمال ، عبر عدة أساليب هي :

١ ــ التلقي عن رسول الله ــ ﷺ ــ ما بلغه للبشرية من قرآن وسنة .

٢ ــ السؤال والاستفسار عما كان مجهولا لديهم من شؤون التفسير والأحكام والعقيدة وغيرها .

٣ ــ الخطب التي كانت تلقى من قبل بعض الصحابة بعد حياة الرسول ــ ﷺ ــ وقد بلغت ذروتها في خطب الصحابة ، ومن أبرزها خطب الإمام علي (رضي الله عنه) التي جمعت في كتاب تحت اسم (نهج البلاغة) والذي شكل مصدرا غنيا فريداً من مصادر الفكر والمعرفة الإسلامية .

٤ ــ حلقات الدرس والمناقشة التي كان يقيمها كبار الصحابة والتابعون والأئمة الأعلام والعلماء في المساجد .

٥ ــ الكتابة والتأليف .

٦ ــ التبني الواعي الملتزم لما نقل عن الأمم الأخرى .

٧ ــ بناء الجامعات والمدارس .

٨ ــ تأسيس العلوم والمعارف .

ولقد كان رسول الله ــ ﷺ ــ أول من اعتنى بتعليمهم العلم والقراءة والكتابة ، فكان يرسل ممثلين عنه لتعليم المسلمين والدعوة إلى الإسلام ، فقد بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة قبل هجرته ، وبعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن ليدعو إلى الإسلام ويعلم الناس المعارف والعلوم ، وقد روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه طلب ممن يعرف القراءة والكتابة من أسرى معركة بدر ، من مشركي مكة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين ، لتكون فدية إطلاقه من الأسر ، لأنه أراد بذلك تحرير العقول من الجهل مقابل تحرير الأيدي من قيد الأسر [1]، لقد بذل العلماء المسلمون بعد ذلك جهودا علمية ضخمة فأسسوا منهاج البحث العلمي فضبطوا أصوله وقواعده العلمية ، ووضعوا المعاجم ودوائر

---

(١) راجع : فقه السيرة للدكتور البوطي ص ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٦٤ .

المعارف والموسوعات والمراجع المفهرسة المنظمة ، وأقاموا الدراسات العقلية والإنسانية على أصول علمية منظمة ، كما وضعوا مناهج البحث ونظرياته وأصوله في مجال الدراسات المادية والطبيعية والحياتية المختلفة .

إن ما لدينا من صرح علمي شامخ ، ومن ثروة فكرية منظمة دقيقة ـــ لتشهد بجهود العلماء الإسلاميين وبقدرة الفكر الإسلامي على العطاء والنمو والإنتاج والأصالة وسلامته من العقم والتوقف والجمود والتبعية والالتقاط ، وصحيح أن المسلمين استفادوا من تجارب الأمم في مجال الفكر والثقافة ، كالفلسفة والكلام والمنطق وعلم الاجتماع والنفس والأخلاق والتاريخ وغيره ، إلا أنهم لم يستلموا هذا الإنتاج الإنساني كمسلمات علمية ، بل نقدوه وناقشوه وصححوه وأضافوا إليه وتوسعوا فيه بشكل يتناسب وما لديهم من فكر ومعتقد وفهم إسلامي ورأي أصيل ، فحافظوا بذلك على أصالة الإسلام ، ونموه وإثرائه في آن واحد ، بالإضافة إلى ما ابتكروا وأسسوا واكتشفوا في هذا المجال ، فكانوا الرواد في وضع الأسس العلمية للعلوم والمعارف الإنسانية ، وتأسيس مناهج البحث والتفكير العلمي وفق منهج عقائدي ونظرة إسلامية ، وهذا الضبط والتنظيم في بنية الفكر ومنهاج البحث والتفكير وتنسيق البناء هو من متطلبات وضرورات التفكير الإسلامي .

ويمكننا أن نسجل الخدمات العظيمة التي قام بها العلماء والمفكرون الإسلاميون ، والمهام التي نهضوا بها كالآتي :

١ ـــ الاستنباط والابتكار وتأسيس العلوم والمعارف .

٢ ـــ الدفاع عن الفكر الإسلامي ورد الشبهات لتحقيق الأصالة والنقاء والاستقامة للفكر الإسلامي .

٣ ـــ النقد والمحاكمة للأفكار غير الإسلامية وكشف أخطائها وعجزها .

٤ ـــ الاستفادة من الفكر الإنساني الذي يتفق وأسس وأصول الفكر والتفكير الإسلامي ولا يخالفه ، بعد غربلته وتنقيحه وهضمه وامتصاصه من قبل الفكر الإسلامي للتأكد من إزالة كل غريب عن روح الإسلام واتجاهه في الحياة ، بحيث يفقد عناصر الغربة في شخصيته ويدخل متجانسا مع الفكر الإسلامي وضمن بنية فكرية واحدة . أ.هـ

الفصل الثالث

مصادر الفكر الإسلامي

المقصود بمصادر الفكر الإسلامي المنابع التي يستقي منها .

من المعلوم أن مصادر الفكر هي التي تحدد طبيعته وخصائصه وقدرته على النمو والعطاء والتأثير .

وبقدر ما تكون هذه المصادر حية وغنية معطاءة ، يكون الفكر حيويا وغنيا ومتماسكا في بنيته . ويمتاز الفكر الإسلامي بأنه فكر يصدر عن منابع ومصادر غنية أكسبته كل عناصر القوة والإبداع والنمو المستمر .

ومصادر الفكر الإسلامي يمكننا أن نقسمها إلى قسمين : الوحي والعقل [1].

وبعد أن ذكرنا مصادر الفكر الإسلامي على سبيل الإجمال نوضحها ونبدأ بالمصدر الأول : الوحي . المصدر الأول من الوحي القرآن الكريم .

القرآن الكريم : أول المصادر الأساسية كافة ، ويعتبر مصدر الفكر ومنبع الفهم والمعرفة والتشريع والحضارة ومقياس الخطأ والصواب ، وعلى أساسه يبنى المسلمون فكرهم وحضارتهم وثقافتهم وعلومهم ومعارفهم في العقيدة والشريعة والأخلاق والفلسفة وكل ما يتصل بدينهم ودنياهم من صنوف الثقافة والفكر والمعرفة والثقافة .

بداية نزول الوحي بالقرآن على الرسول ـ ﷺ ـ : [2]

لقد كان نزول الوحي على الرسول الكريم محمد (ﷺ) بداية التغير والانقلاب الفكري والحضاري والعقائدي والاجتماعي الشامل ، ومنطلقا جديداً . عبر القرآن عن هذا الانقلاب الحضاري والتاريخي الشامل بأنه إخراج من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الموت إلى الحياة . قال تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

---

[1]) راجع محاضرات في التيارات الفكرية للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص ٢٣ .

[2]) راجع في نزول القرآن الكريم : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ١/ ٤٥ والبرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٢ ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني جـ ١/ ٣٤ ـ ٤٥ .

لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {١}﴾ (إبراهيم / ١) .

وقال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١٢٢}﴾ (الأنعام /١٢٢) .

إن السعة والشمول والاستيعاب القرآني القائم في نصه ومفهومه وسعة أفق معالجته ، مصدر ثراء للفكر ومادة أساسية لتقويم المعرفة الإنسانية ووضعها على الطريق الصحيح .

وقبل أن نوضح العلاقة بين القرآن الكريم والفكر الإسلامي وكيفية حصولنا على الفكر من القرآن الكريم يحسن بنا أن نعرف بالقرآن الكريم ونذكر بخصائصه وأقوال العلماء في وصفه ونبدأ بتعريفه فما تعريف القرآن الكريم ؟

تعريف القرآن الكريم :

عرف العلماء القرآن الكريم بأنه اللفظ العربي المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته المتحدي بأقصر سورة منه ، المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس [1] .

خصائص القرآن الكريم :

أنزل الله تعالى هذا القرآن على الرسول ـ ﷺ ـ ليخرج به هذه الأمة من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام حتى أصبحت خير أمة أخرجت للناس ، وتميزت هذه الأمة بخصائص كثيرة ليست في الأمم كلها واختص أيضا نبيها ﷺ بخصائص كثيرة ، وتميز دينها الإسلامي بخصائص عديدة ليست في الأديان الأخرى ، وتميز الكتاب الذي أنزل عليها بخصائص دون سائر الكتب المنزلة ، وقد كتب كثير من المفكرين في خصائص الإسلام ، وفي خصائص الأمة الإسلامية وفي خصائص

---

(١) راجع تعريفات أخرى للقرآن الكريم في كتاب الأحكام للآمدي جـ ١/٢٨٨ والمستصفى للغزالي جـ ١/٦٥ ومناهل العرفان ج ١/١٥ وما بعدها وبدائع القرآن للبوطي ص ٢١ طبعة ثانية مكتبة الفارابي دمشق ١٩٧٠م .

ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم فقال النجاشي : فاقرأه علي ، فقرأ عليه صدرا من سورة " كهيعص " فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ... والله لا أسلمكم [1] .

والمتدبر في هذا النص يجد أثر الإسلام على العرب كبيرا حتى كان عهد الإسلام بالنسبة لما قبله كالحياة بعد الموت وكالنور الساطع بعد الظلام الدامس ، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١٢٢}﴾ (الأنعام /١٢٢) .

التفكير في عهد الرسول ـ ﷺ ـ والصحابة والتابعين :

في بداية البعثة الإسلامية التي بدأت بنزول الوحي على الرسول الكريم محمد ـ ﷺ ـ وانطلاق الدعوة الإسلامية في محيط من الجهل والتخلف والأمية ، لم يكن لدى المسلمين من معارف وعلوم وفكر غير ما حوى كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ـ ﷺ ـ وهما كما هو واضح يشكلان المعين الفكري الذي لا ينضب ، والأساس والقاعدة اللذين استنبط منهما الفكر والمعرفة الإسلاميين نتيجة حركة التفكير والاجتهاد والابتكار ، وشيد عليها صرح البناء الفكري والحضاري للمسلمين وللبشرية أجمع والتي أصبحت مدينة في تطورها العلمي والمدني للإسلام ورسالته .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١/٣٣٦ .

ثانيا : الخصائص التي تتعلق بفضله وشرفه ومكانته :

وهي خصائص كثيرة منها :

١ ـ **فضله** : لا يخفى فضل القرآن الكريم عمن لديه أدنى علم شرعي ذلكم أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وصراطه المستقيم ودستوره القويم وهو مصدر الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة ونور الأبصار والبصائر فلا طريق إلى الله سواه ولا تمسك بشيء يخالفه ناط به كل سعادة ، وهو رسالة الله الخالدة ، ومعجزته الدائمة ، ورحمته الواسعة وحكمته البالغة ، ونعمته السابقة ، وهو حجة الرسول ﷺ الدامغة ، وآيته الكبرى الشاهدة برسالته والناطقة بنبوته وهو كتاب الإسلام في عقيدته وشريعته ، ومعاملاته ، وحكمه وأحكامه ، وآدابه وأخلاقه وقصصه ومواعظه ، وأخباره ، وهدايته ودلالته ، وهو أساس رسالة التوحيد ، والمصدر القويم للتشريع ، ومنهل الحكمة والهداية والرحمة المسداة ، والنور المبين للأمة ، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك ، وقد ورد في فضله على الجملة أحاديث نذكر منها حديث أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما من طريق الحارث الأعور عن علي سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون فتن . قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو جعل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم [1] . فضله لا يدانيه فضل ولا تسمو إليه مكانة .

وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله " (البقرة / ٢٣ ، ٢٤) راجع أصول الفقه لأبي زهرة ص ٨٢ والقول المبين في الدليل النقلي ومكانته ص ٩١ .

(١) راجع الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١٥١/٢ .

٢ ــ **شفاعته لأهله** : ومن خصائص القرآن الكريم أنه ينفع لأهله يوم القيامة ومن الأدلة على ذلك حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)[١] وقوله ﷺ ــ الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة [٢]

٣ ــ **أنه شفاء** : قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء ٨٢) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ (فصلت ٤٤) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (يونس ٥٧) وتدبر وصف الله للقرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء ؛ لأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه ، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد لثمرة التداوي به ، وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل بنفسه بالتداوي بالقرآن فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : (إن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها) [٣] واقتدي به أصحابه رضي الله عنهم فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك فقال : هل معكم من دواء أو راق فقالوا إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلا فجعلوا لهم قطعيا من الشاه فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ فأتوا بالشاء فقالوا لا نأخذه حتى نسأل النبي ــ ﷺ ــ فسألوه فضحك وقال : (وما أدراك أنها

---

[١] الحديث رواه مسلم في الصحيح .

[٢] الحديث ورد في مجمع الزوائد للهيثمي ٣٨١/١٠ والإمام أحمد ١٧٤/٢ ومشكاة المصابيح للتبريزي ٢٩٦٣ .

[٣] الحديث رواه البخاري وأخرج البيهقي في الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبي ــ ﷺ ــ وجع حلقه قال عليك القراءة بالقرآن ــ الاتقان ج ١٩٣/٢ وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال جاء رجل إلى النبي ــ ﷺ ــ فقال إني اشتكي صدري قال اقرأ القرآن يقول الله تعالى وشفاء لما في الصدور ..

رقية ، خذوها واضربوا لي بسهم) [١] والقرآن شفاء للأمراض النفسية وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة إلى التداوي بالقرآن لهذا الداء الوبيل في عالم تتنازعه الأهواء المادية والشهوات الجسدية والملذات الدنيوية ، وإنما تحدث الأمراض النفسية حين يعرض الإنسان عن القرآن وعن ذكر الله (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً) (طه ١٢٤) وقال سبحانه وتعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) (الزخرف ٣٦) أما العلاج والشفاء فهو قرين الذكر (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد ٢٨) ولكن ينبغي أن نعلم أن الاستشفاء بالقرآن يستدعي كمال اليقين وقوة الاعتقاد وسلامته ولذا قال العلامة الزركشي رحمه الله تعالى عن الاستشفاء بالقرآن : " لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته ، وتدبر الكتاب في عقله وسمعه ، وعمر به قلبه ، وأعمل به جوارحه ، وجعله سميره في ليله ونهاره وتمسك به وتدبره [٢] .

٤ ـ **التعبد بتلاوته** : ومن خصائصه التي تتعلق بفضله وشرفه ومكانته : التعبد بتلاوته [٣] ، وتعدد أسمائه وصفاته ، والثواب لقارئه ومستمعه ، وأن له نزولين ، ونزوله منجما دون سائر الكتب السابقة وغير ذلك .

ثالثا : خصائص تتعلق بأسلوبه ولغته :

أهم الخصائص التي تتعلق بأسلوبه أن أسلوبه لا يعلوا عن أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة .

أقوال بعض المفكرين من المسلمين وغير المسلمين في وصف القرآن الكريم :

تمهيد :

منذ أن نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ وبدأ يقرؤه على المسلمين وهم بدورهم يرتلونه في غدوهم ورواحهم أحس أصحاب الفكر السليم والذوق الرفيع

---

[١] الحديث رواه البخاري .

[٢] البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي جـ ١ / ٥ دار المعرفة بيروت لبنان

[٣] راجع القول المبين في الدليل النقلي ومكانته عند المتكلمين ص ٩٧ .

بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر ولذلك شهد له الكفار والمشركون قبل المسلمين .

فقد قال الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه . وما هو بقول البشر[١].

وصف الإمام علي (رضي الله عنه) القرآن الكريم فقال :

(ثم أنزل القرآن نوراً لا تنطفئ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه وشعاعاً لا يظلم ضوؤه ، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وبياناً لا تهدم أركانه) [٢]

(وسئل الإمام جعفر بن محمد الصادق رحمه الله : ما بال القرآن لا يزداد على الدرس والنشر إلا غضاً ، فقال : (لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة).

وروى عنه أيضا أنه قال : (إن القرآن حي لم يمت ، وأنه يجري كما يجري الليل والنهار ، وكما تجري الشمس والقمر ، ويجري على أخرنا كما يجري على أولنا) [٣]

يقول الدكتور عبد المنعم النمر في وصفه للقرآن الكريم هو هداية الله وهدية إلى خلقه : يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام .

ولقد كان القرآن وسيظل على مر القرون يمثل العمود الفقري لهذه الأمة به ارتفعت وترتفع قامتها ، ومنه استمدت وتستمد قيمها وقيمتها وعليه قامت نهضتها وازدهرت حضارتها ، ومن تعاليمه شكلت منهاج وخريطة وشكل حياتها ، وفي خلوتها ومناجاتها ربها تعتمد عليه كصلة وثيقة بينها وبين ربها [٤]

ويقول السيوطي في مقدمة الإتقان في علوم القرآن : إن كتابنا يقصد القرآن فهو مفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمعها ومطلعها أودع الله فيه علم كل شيء وأبان

---

[١] راجع سيرة ابن هشام والبرهان للزركشي جـ ٢ / ١٠٤ ، ١١٠ .

[٢] راجع نهج البلاغة / تنظيم صبحي الصالح / ص ٣١٥ / ط ١ .

[٣] راجع تفسير البيان للخوئي ص ٢٣ / ط ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م .

[٤] ص ٣ علوم القرآن دار الكتب الإسلامية ط ٢ / سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

فيه كل هدى فترى فيه كل فن منه يستمد وعليه يعتمد فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج منه حكم الحلال والحرام . والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه والبياني يهتدي به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام ، وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولى الأبصار ومن المواعظ والأمثال ، ما يذكر به أولوا الفكر والاعتبار إلى غير ذلك من علوم .. هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب ، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب [١].

ويقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني القرآن الكريم : كتاب ختم الله به الكتب وأنزله على نبي ختم به الأنبياء بدين عام خالد ختم به الأديان .

فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق وقانون السماء لهداية الأرض أنهى إليه منزلة كل تشريع وأودعه كل نهضة وناط به كل سعادة وهو حجة الرسول وآيته الكبرى ، يقوم في فم الدنيا شاهدا برسالته ناطقاً بنبوته دليلا على صدقه وأمانته .

وهو ملاذ الدين الأعلى يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه وقصصه ومواعظة وعلومه ومعارفه .

وهو عماد لغة العرب الأسمى ــ تدين له اللغة في بقائها وسلامتها ، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها .

وهو أولا وآخرا ــ القوة المحولة التي غيرت صورة العالم ونقلت حدود الممالك وحولت مجرى التاريخ وأنقذت الإنسانية العاثرة ، فكأنما خلقت الوجود خلقا جديدا [٢].

من خلال ما قدمنا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون أن القرآن الكريم هو المعين الذي لا ينضب ، والمنبع الذي لا يجف ، وأنه قاعدة الفكر والحضارة ، وأساس المعرفة والثقافة .

إن القرآن الكريم قد وضع الأسس والكليات العامة للتفكير الإسلامي الملتزم، والمادة الفكرية المحررة من قيود الزمان والمكان ، وأرسى قواعد التفكير الإسلامي الملتزم .

---

[١] راجع الاتقان ج ١/ ص ٢ ، ٣ دار نهر النيل للطباعة .

[٢] مناهل العرفان م ١/ ١٠ طبع دار إحياء الكتب العربية الحلبي .

إن فهم القرآن الكريم ، واستنباط الفكر والمعرفة منه يحتاج إلى عقلية إسلامية مستوعبة لروح القرآن ، ومدركة لمحتواه الفكري ، وقادرة على استنطان العمق وبلوغ الأغوار البعيدة لخزائن القرآن ، والربط بين الأفكار والمفاهيم الواردة في كتاب الله واستنتاج المطلوب .

كما أن القرآن الكريم مقياس للفكر الإسلامي وميزان لضبط الصواب ، وتسديد الفكر وتقويمه ، فعلى أساس القرآن يجري تقويم الفكر والمعرفة والثقافة ، وبه يُعرف الصواب من الخطأ ، فكما أنه مصدر الفكر والثقافة فهو أيضا مقياس للصواب والأصالة .

قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء /٥٩) أي ردوه إلى كلام الله الموجود في القرآن وإلى كلام رسول الله الموجود في السنة .

وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾(البقرة/ ٢١٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً {٨٣} ﴾ (النساء/ ٨٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٤٣} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {٤٤}﴾ (النحل/ ٤٣ ــ ٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (النحل/ ٨٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الإسراء/ ٨٩) .

فالله تعالى في هذه الآيات يوجب علينا الرجوع إلى القرآن الكريم وأن نتخذه كمقياس وميزان للفكر والمعرفة ومفاهيم الحياة والتشريع والقانون .. الخ ، صيانة

للتفكير الإسلامي ومحافظة على روح الشريعة ونقائها ، وما جاء في السنة يعضد هذا المبدأ الأساسي ويؤكده .

وقد أغنى العلماء والفلاسفة والمفكرون والباحثون الإسلاميون أفاق الفكر الإنساني بالفكر والمعرفة والعطاء الإسلامي الملتزم في كل مجال ، واستطاعوا مناقشة ومحاكمة الأفكار والنظريات والفلسفات والمذاهب المخالفة للإسلام على أساس الكتاب والسنة وقواعد العقل ، فأنتجوا ثروة فكرية إسلامية فريدة واستطاعوا أن يشخصوا الخطأ والصواب في النتاج الفكري وأن يقفوا على النظريات الخاطئة والآراء المنحرفة وأن يكونوا منهج بحث وفكر قويم .

كيفية الاستفادة من النصوص القرآنية :

من الواضح لدي المفكرين والباحثين الإسلاميين والعلماء والمفسرين أن النص القرآني بمفرداته وجمله وهيأته وسياقه يحتاج إلى دراسة وتحليل وفهم دقيق وعميق .

وقد وضع المفسرون أسساً ومناهج متعددة لفهم القرآن وإيضاح معانيه ، كما وضع علماء الأصول الأسس والقواعد الأصولية لفهم القرآن والتعامل مع محتواه وتحليله واستنباطه .

وقد بلغ المنهج الأصولي ذروة الكمال والإتقان عند علماء أصول الفقه في كيفية استفادة الأفكار والمفاهيم القرآنية ، فقد تناولوا في بحثهم للألفاظ والأدلة اللفظية ولعلاقة الكتاب بالسنة ، كيفية تنظيم العمل الاستنباطي من القرآن الكريم ، وحل معضلات الاستنباط التي تعترض طريق الفقيه والباحث في المفاهيم والأفكار والمحتوى القرآني ، كدلالة الألفاظ ، والتعارض ، وطريقة استفادة المفاهيم ، والعلاقة بين العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمشابه .. الخ .

وشادوا نظريتهم في فهم القرآن على أساس (حجية الظواهر القرآنية) وبذا اختلف هذا المنهج عن مناهج بعض المفسرين الذين لجأوا إلى التفسير والتأويل الباطني المجرد عن الدليل ، كالسنة الصحيحة ، أو النص القرآني الموضح ، كما بحث علماء الأصول علاقة القرآن بالسنة ، كتقييدها لمطلق القرآن ، وتخصيصها

لعامة ، وغير ذلك من المجالات التي بحثها علماء أصول الفقه في مجال استفادة الأحكام والأفكار واستنباطها من القرآن الكريم

ولا يستغني الباحث والمفكر الإسلامي الذي يريد اكتشاف الأفكار والمفاهيم والنظريات في مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والنفس والفكر .. الخ عن فهم مناهج التفسير والتأويل ، وعن فهم القواعد الأصولية المتعلقة بفهم القرآن .

وينبغي أن نشير هنا إلى أن التفسير والتأويل القرآني ينبغي أن لا يقتصر على الطريقة المألوفة ، وهي شرح المفردات أو تفسير الآيات تفسيرا لكل آية في موضعها وبحدود عطائه الجزئي ، بل ينبغي أن تتجاوز ذلك إلى الدراسة الموسعة والبحث المستهدف إنتاج قضية فكرية متكاملة كأن تكون قضية سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أخلاقية أو عقائدية أو قانونية .. الخ ، فنتناول الموضوع ونبحثه بحثاً نجمع فيه بين الآيات ذات العلاقة بعضها مع بعض ، بالإضافة إلى الاستفادة من سبب النزول ، فهو يشكل مصدراً إيضاحياً وإغناء للفكرة والمفهوم ، لذا ينبغي الرجوع إليه والاستفادة منه ، وربط ما ورد في السنة من إيضاحات تتعلق بموضوع البحث مع هذا العطاء القرآني لنحصل على نظرية أو فكر متكامل في ذلك الموضوع .

لما كان القرآن هو المصدر والمنبع للفكر والمعرفة الإسلامية ، فكان من الطبيعي أن كل صاحب فكر ومعرفة يلجأ إلى القرآن ليسند رأيه بآياته ومفاهيمه أو يغترف من عطاء بحره .

ونتيجة لنشوء المعارف والعلوم المتعددة ، كالفلسفة وعلم الكلام والتصوف والمذاهب الباطنية والظاهرية .

تعددت مناهج المفسرين [1]، كما نشأت في عصرنا الحاضر العلوم الطبيعية وما فيها من فلسفات ، كما نشأت المذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة ، فكان لكل هذه المستجدات التي يحملها أصحابها تأثير في طريقة فهم القرآن واكتشاف محتواه ، وقد تجنت مذاهب واتجاهات تفسيرية عديدة على واقع القرآن ،

---

(١) راجع مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني جـ ٢/١٠ طبع دار الشام للتراث والمدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية للدكتور شعبان محمد إسماعيل جـ ٢/٢٠٦.

وغابت الموضوعية والواقعية عند دراسة القرآن وتفسيره في خضم هذا الاضطراب الفكري والمنهجي . لقد كان المسلمون في عصر الصحابة يتبعون ظاهر القرآن أو يلجأون في تفسير القرآن إلى آيات أخرى من القرآن ، أو باللجوء إلى المأثور من السنة ، وسار التابعون على المنهج ذاته في فهم وتفسير القرآن بالإضافة إلى المأثور عن الصحابة [١].

أما المحدثون فاعتمد الكثير منهم في تفسير القرآن الكريم على ما آثر عن الصحابة والتابعين من رواية فيما أشكل عليهم بالطريقة اللغوية المعهودة ، ولم يعطوا العقل أي دور أو مساحة يتحرك فيها واعتمد البعض منهم أثناء التفسير بأمور أخرى كالعجائب الكونية كتفسير الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي [٢].

المنهج القرآني في تفسير آيات القرآن الكريم :

إن المنهج الذي ينبغي أن يلتزم به الإنسان المسلم هو المنهج الذي حدده القرآن نفسه ، فالقرآن الكريم :

١ ــ تحدث عن نفسه وأوضح بأنه قرآن عربي مبين ، وأنه ميسر للذكر، وأنه يخاطب الناس بلغتهم ولسانهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {٢} ﴾ (يوسف/ ٢) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُولٍ إِلاَّ بلسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم/ ٤) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ {١٧} ﴾ (القمر/ ١٧) .

٢ ــ يتحدث القرآن عن مهمة الرسول والسنة في بيان وتوضيح ما اشتبه على المسلمين من معاني القرآن وغيره : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء/ ٥٩) .

وعلى هذا النهج سار الصحابة الذين عاصروا الرسول الكريم ــ ﷺ ــ فقد كانوا يرجعون في فهم القرآن ــ كلما أشكل عليهم شيء ــ إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ويستوضحون منه مراد القرآن ومقاصده ومعانيه .

---

(١) المدخل لدراسة القرآن والسنة للدكتور شعبان محمد إسماعيل جـ ٢/٢١٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {٢٤}﴾ (محمد/ ٢٤) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ {٤٣}﴾ (العنكبوت/ ٤٣) ، ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة/ ٢١٩) ، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر/ ٢١) .

وهكذا نصل إلى المنهج الإسلامي الملتزم في تحديد فهم القرآن واكتشاف معانيه ، وهذا المنهج يجعلنا نرفض المحاولات الشاذة والمقحمة على روح القرآن ، وهي كل المناهج التي تحاول أن تخرج بالقرآن عن مراده الحقيقي إلى الفكري والمذهبي غير المقصود للقرآن .

فالقرآن يرفض الجمود والتوقف في فهم معانيه واكتشاف محتواه ، ويدعو للتدبر والاستنتاج والاكتشاف من مناهجه والاستخراج من منابعه ، كما يرفض الذين يفسرون القرآن بأهوائهم ووفق رغباتهم .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {٧}﴾ (آل عمران/ ٧) .

والخلاصة أن تفسير آيات القرآن الكريم لابد أن يكون وفق قواعد ومبادئ وضعها العلماء واتفقوا عليها[1] وهذا يجعلنا نتخلص من مشكلتين خطيرتين وقع فيهما الكثير من المفسرين والباحثين في القرآن الكريم وهما : التخلص من ظاهرة الجمود الفكري والتوقف عن الفهم والاستنباط الذي دعا إليه كثير من المثقفين . وظاهرة إخضاع النصوص القرآنية وفق الميل المذهبي والاعتقادي للمفسر وينبغي الإشارة هنا إلى أن الفهم اللغوي للقرآن يجب أن تراعى فيه معاني الألفاظ واستعمالاتها في عصر النزول ، دون أن يدخل تأثر الألفاظ بالتطور الاستعمالي للكلمة عبر العصور في الفهم والاستنتاج ، فإن القرآن قد خاطب العرب بالألفاظ

---

(١) راجع المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية للدكتور شعبان محمد إسماعيل جـ ٢/٢٦٤ .

والصياغات والأساليب المستعملة لديهم في تلك المرحلة ، لذلك ينبغي أن يفهم القرآن وفق تلك الكيفيات والمناهج اللغوية.

ويرتبط بهذا السياق قضية تفسير مفردات القرآن بمفردات مرادفة لها في الاستعمال فأن الشيء الذي يجب الانتباه إليه هو أن المترادفات ليست متساوية جميعها في القدرة على تصوير مراد القرآن ؛ لذلك فأن اختيار القرآن لمفرد لغوي دون غيره من المفردات المرادفة كان لغرض الدقة في التعبير والإتقان في تصوير المعنى المراد ، وليست قضية عفوية أو جمالية مجردة ، لذا ينبغي فهم المفردة اللغوية بدقة ، واستعمالها ومدلولها وفق إطلاقها في عصر التنزيل ، وقد ساهمت الدراسات اللغوية المعمقة وتحليل ألفاظ القرآن واستعمالاتها في فتح أفاق رحبة أمام الباحث والمفكر والمستنبط فاستعمال لفظ معين دون غيره من الألفاظ يعطي معنى أو أفكاراً أخرى ، وكل هذه المعاني لا يمكن فهمها إلا عن طريق البحوث والدراسات اللغوية المعمقة للألفاظ والصيغ والتراكيب والأساليب القرآنية . كما ساهم الباحثون في القرآن في إيضاح المراد القرآني ورفع الغموض عنه ، وبذا صار بين يدي الباحث والمفكر والمستنبط مادة فكرية غنية ، ووسائل علمية وكيفية استفادة الأفكار والمفاهيم من القرآن الكريم.

كيف نحصل على الفكر المراد الحصول عليه من القرآن الكريم؟

إن المفاهيم والأفكار والمعارف الإسلامية مبثوثة في أفق القرآن الكريم وبحر آياته الواسع ، ولكي نستطيع أن نحصل على الفكر المراد الحصول عليه من القرآن علينا أن نتبع الطرق الآتية:

١ ــ أن للآية معنى ومفهوماً قد يكون فكرة ناقصة لقضية سياسية أو اخلاقية أو اقتصادية أو قانونية أو نفسية أو غير ذلك . وقد يشكل هذا المعنى في بعض الحالات ، الفكرة الكاملة للموضوع الذي نريد بحثه وقد يشكل في حالات أخرى جانباً من هذا الموضوع ، وفي هذه الحالة يجب الانتقال إلى الخطوة الثانية لنستطيع تحقيق التكامل واستنباط الأسس والعناصر المتكاملة للفكر والنظرية التي نريد اكتشافها .

٢ ــ أما الطريقة الثانية التي نلجأ إليها لاستنباط الفكر أو النظرية التي تعالج أحد الموضوعات الحياتية فهي نهج التفسير الموضوعي ، ويعتمد على استقراء الآيات التي تعالج ذلك الموضوع جميعها ، ومن ربط مفاهيم الآيات ومعالجاتها وتحليلاتها والأفكار المستوعبة فيها بعضها ببعض نستطيع أن نستنبط منها الفكرة والنظرية التي نستهدف اكتشافها .

٣ ــ وقد لا نستطيع اكتشاف الفكرة والنظرية بصورة كاملة من خلال بعض الآيات التي يتكون منها موضوعاً ما اقتصادياً أو سياسياً ، لذا نحتاج إلى الربط والتنسيق بينها وبين آيات أخرى قد ترتبط بالتوحيد أو الأخلاق أو العبادات أو المفاهيم العامة عن الحياة أو غير ذلك ، وبالمفاعلة والربط بين الأفكار المختزنة في هذه الآيات وتلك ، نستطيع أن نفهم ونستنتج الفكر والنظرية التي نبحث عنها .

ونستطيع أن نستظهر من مجمل الفكر والمعالجات والاتجاه القرآني أفكاراً ومفاهيم تساهم في بناء الفكر في أي مجال من مجالات الحياة الإنسانية . أن هذا المنهج يساعد المفكر والباحث على الاستفادة من النص القرآني وما حوى من منطوق ومفهوم ، والاعتماد عليه في استنباط الفكر والنظرية التي يراد اكتشافها وبناؤها . أن هذه الطرق الثلاث هي المنهج العلمي الذي ينبغي إتباعه عند محاولة اكتشاف فكرة أو مفهوم أو نظرية من القرآن الكريم .

ب ــ المصدر الثاني من مصادر الفكر الإسلامي المستمد من الوحي (السنة النبوية الشريفة)

تعريف السنة :

السنة في اللغة هي : الطريقة والسيرة المعتادة سواء أكانت محمودة أم مذمومة ، ومنها قول الله تعالى ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً {٢٣}﴾ (سورة الفتح ٢٣) وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال / ٣٨) .

وقول الرسول ـ ﷺ ـ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة [١] .

وفي الاصطلاح هي : كل ما يصدر عن رسول الله ـ ﷺ ـ من قول أو فعل أو تقرير [٢] ـ وتطلق أحياناً ويراد بها مقابل البدعة ـ وتطلق أحيانا ويراد بها ما واظب رسول الله ـ ﷺ ـ على فعله من غير الواجبات .

والسنن القولية هي جملة ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ في مختلف الأغراض والمناسبات ـ مثل قوله ـ ﷺ ـ " نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه وبلغه غيره فرب حامل فقه ليس بفقيه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، وصحة ولاة الأمور لزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم " [٣] وقوله ﷺ " ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السباع" [٤]

والسنن الفعلية هي جملة أفعاله ـ ﷺ ـ مثل أدائه للصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها ، وأدائه مناسك الحج ، وقضائه بشاهد واحد ويمين المدعي .. الخ

والسنن التقريرية هي جملة ما أقره الرسول ـ ﷺ ـ مما صدر من بعض أصحابه من أقوال أو أفعال بسكوته وعدم إنكاره ، أو بموافقته وإظهار استحسانه فيعتبر بهذا الإقرار والموافقة عليه صادرا عن الرسول نفسه ، مثل إقراره وعدم إنكاره لاجتهاد الصحابة في أداء صلاة العصر يوم غزوة بني قريظة [٥] .

---

[١] أخرجه مسلم عن جرير ابن عبد الله البجلي كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، انظر شرح النووي لصحيح مسلم جـ ١٦ / ٢٢٦ وانظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة سن ج ٣/٦٠ ، ولسان العرب لابن منظور مادة سنن وأصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله طبع دار الفكر العربي وحجية السنة لعبد الغني عبد الخالق ص ٤٥ ـ ٥١ دار السعداوي .

[٢] انظر الآمدي ج٢٤١/١ وحجية السنة لعبد الغني عبد الخالق ص ٥١ وما بعدها والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي المكتب الإسلامي ط ٤ سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

[٣] راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ ٣٩/١ .

[٤] راجع المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية د. شعبان إسماعيل جـ ٣٢/٢ .

[٥] راجع المدخل لدراسة القرآن والسنة د.شعبان محمد إسماعيل جـ ٢٠/٢ والحديث رواه البخاري بسنده عن ابن عمر راجع فتح الباري جـ ٢٨٦/٧ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢٦٥٢.

والسنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر الفكر والتشريع الإسلاميين بعد القرآن الكريم ، ومنبع أساسي من منابع الهداية والإصلاح ، وعلاقتها بالقرآن الكريم تتحدد في أنها مبينة ومفسرة وموضحة للقرآن الكريم وكاشفة عن محتواه ومترجمة له . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل ٤٤) وقال تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ (النحل ٦٤) [١]

وقد اعتنى المفكرون قديما وحديثا بالسنة النبوية الشريفة ، وبذلوا جهودا شاقة ومنظمة لحفظها وتنقيحها وضبطها وتدوينها ونقلها وبيان مكانتها من القرآن الكريم[٢] .

وقد مرت عملية حفظ السنة ونقلها بمرحلتين هما :

أ ـ مرحلة الحفظ في الصدور والنقل عن الرواة مشافهة .

ب ـ مرحلة التدوين والكتابة ، واستيداع السنة في كتب خاصة [٣] .

وقد حوت هذه الكتب آلاف الأحاديث والروايات التي عالجت الأحداث والوقائع المختلفة ، ويشمل الكثير منها قواعد وأسس تشريعية وفكرية وتربوية وأخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية عامة ، وبضمها إلى ما جاء في القرآن الكريم ، وربط بعضها ببعض نحصل على ثروة فكرية ضخمة وعطاء معرفي وثقافي لا يضاهي[٤] .

وتحتل السنة النبوية في الحياة الفكرية للمسلمين دوراً أساسيا يتلخص في :

أ ـ إنها مصدر للفكر والتشريع والمعرفة الإسلامية بعد القرآن الكريم .

---

[١] انظر : حجية السنة لعبد الغني عبد الخالق ص ٢٤١ .

[٢] راجع اهتمام المحدثين بالسنة للدكتور الخشوعي الخشوعي محمد ص ٣٧ طبعة الجمعية الشرعية الرئيسية بالقاهرة .

[٣] راجع المدخل لدراسة القرآن والسنة جـ ١٢٩/٢ .

[٤] انظر : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لمصطفى السباعي ص ٥٦ وما بعدها واهتمام المحدثين بالسنة للدكتور الخشوعي ص ٩٧ .

ب ــ إنها مقياس لتحقيق الصحة والصواب لما ينتجه المفكرون والباحثون الإسلاميون ، وأداة لتوضيح الخطأ والصواب .

والخلاصة أنه بالرجوع إلى الكتاب والسنة استطاع الفكر الإسلامي أن يبني هذا الصرح الفكري والثقافي الإسلامي الشامخ ويمد الحياة الاجتماعية والفكرية ويغطي ما سأتحدث من مسائل ووقائع فكرية .

ج ــ المصدر الثاني من مصادر الفكر الإسلامي بعد الوحي (المتمثل في القرآن والسنة) هو العقل .

أولا : تعريفه العقل في اللغة :

جاء في معاجم اللغة العربية مادة " عقل " العقل : الحجر والنهي ، وهو ضد الحمق والجمع عقول وجاء في حديث عمرو بن العاص : تلك عقول كادها بارئها أي أرادها بسوء . وأن كلمة العقل مصدر من الفعل الثلاثي عقل بمعنى ربط ومنع وحجز ، ورجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه ، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها ، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام ، والمعقول : العقل ، يقال : ماله معقول أي عقل وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالميسور والمعسور.

وعاقله فعقله بالضم : كان أعقل منه .

والعقل : التثبت في الأمور .

والعقل : القلب وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أو يحبسه [1] أي يربط ويمنع ويحجز صاحبه عن إتيان ما هو ضار وقبيح.

---

(١) انظر لسان العرب مادة عقل ج ٤٥٨/١١ والقاموس المحيط ج١٣٣٦/١ ، والعين ج١٨٧/١ ، ومختار الصحاح ١٨٧/١ والمغرب في ترتيب المعرب لأبي الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز ج ١٥٩/٢ نشر حلب مكتبة اسامة بن زيد الطبعة الأولى ١٩٧٩م تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، والمصباح المنير ج ٤٢٢/٢ ــ ٤٢٣ ، وانظر بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب للحكيم الترمذي ص ٧٦ تحقيق نقولا نشر مطبعة الحلبي سنة ١٩٥٨م .

ويأتي بمعنى الفهم يقول الحارث بن أسد : " والعرب إنما سميت الفهم عقلا لأن ما فهمته فقد قيدته وضبطته بعقلك كما البعير قد عقل أي أنك قيدت ساقه على فخذيه وقالوا : اعتقل لسان فلان ، أي استمسك [١] .

ثانيا : تعريفه العقل في الاصطلاح :

عرف العقل بعدة تعريفات منها :

١ ــ العقل هو القوة المفكرة التي يدرك بها الإنسان حقائق الأشياء ، وهو الذي استعد به الإنسان لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية.

٢ ــ العقل هو ملكه يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع عن المحذور والمنكر [٢] .

٣ ــ العقل : قوة بها يكون التميز بين القبح والحسان .

٤ ــ العقل هو غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية ، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد الإنسان لإدراك الأشياء .

٥ ــ العقل غريزة يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب [٣] .

٦ ــ العقل : نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية[٤].

٧ ــ العقل : العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين [٥].

---

[١]) العقل وفهم القرآن للحارث بن أسد المحاسبي ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ تحقيق حسين قوتلي طبع بيروت سنة ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م .

[٢]) راجع التفكير فريضة إسلامية للعقاد ص ٨ وما بعدها دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٩ وتجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود ص ٣١٠ دار الشروق بيروت سنة ١٩٧١م .

[٣]) المصباح المنير ج ٤٢٢/٢ ــ ٤٢٣ .

[٤]) المنجد للأب لويس معلوف اليسوعي ١٩٠٨ المطبعة الكاثوليكية ببيروت وراجع : مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة للدكتور محمد علي ص ٣٠ طبع دار العلم للملايين بيروت طبع ١ سنة ١٩٨٠ ..

[٥]) القاموس ج ١٣٣٦/١ .

واضح مما سبق أن العقل هو : ذلك النور الذي يميز به الإنسان الرشد من الغي ، والخير من الشر ، والممكن من المستحيل ، والحق من الباطل ، أن ذلك النور هو العقل ، وهذا واضح في تعريف (الفيروز آبادي) السابق في (القاموس) : بأنه نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية ، وجاء في حديث النبي ـ ﷺ ـ أن العقل عقال من الجهل ، والنفس مثل أخبث الدواب ، فإن لم تعقل حارت .

والعقل مصدر التمييز والإدراك والضبط ويشترط في الراوي أن يكون عاقلا لما يسمع ولما يحدث به ، وبداية العقل التمييز الذي يبدأ مع الطفل ويمكنه من التفريق بين الصدق والكذب وبين حيوان وحيوان وبين شيء وشيء ثم يتكامل العقل خلال فترة البلوغ والشباب والكهولة ويبدأ بالتناقص في فترة الشيخوخة والهرم . وقد يصل إلى انعدام التمييز في مرحلة الهرم .

والعقل كما يقول أحد الحكماء في وصفه : العقل حجة الله القاطعة البالغة وأصل براهينه الساطعة الدامغة ، وبواسطته استعبد الله عباده بالكلمة ، ثم العقل جواز إرسال الرسل ، ولا يرد ما تقوى به لتوضيح السبل ، والنقل لا يأتي بما يناقض العقل [١].

وقال عنه الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ : " إنه وكيل الله عند الإنسان " [٢]

وقال عنه أبو حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ : " إن العقل أنموذج من نور الله " [٣]

---

[١] انظر دلائل التوحيد للقاسمي ص ١٣٦ .

[٢] راجع : تمهيد للفلسفة للدكتور زقزوق ص ٩٢ نقلا عن تجديد الفكر العربي ص ٣١٠ .

[٣] راجع : مشكاة الأنوار للغزالي ص ٤٤ طبع القاهرة سنة ١٩٦٤م .

دور العقل في بناء صرح الفكر الإسلامي

وللعقل دور أساسي في بناء صرح الفكر الإسلامي بما حوى من آفاق وأبعاد واسعة وعطاء ثر وبناء ، فالعقل هو الأداة الفعالة التي استخدمها العلماء والفلاسفة والمفكرون في اكتشاف العلوم والمعارف والأفكار والمفاهيم الحضارية المختلفة وبناء صرح الحضارة ، وما عملية الاجتهاد ، أو عملية اكتشاف واستنباط الأحكام والمفاهيم والأفكار إلا نتاج ممارسة العقل دوره في الفهم والربط والتحليل والاستنتاج .

لقد أعطى الإسلام للعقل حريته وحرره من الركود والجمود ودعاه إلى التفكر والتأمل والفهم والاستنباط كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {٢٤} ﴾ (محمد ٢٤) .

وكما في الآيات العديدة التي تحدثت عن ضرورة الفهم والتفكير والاستنباط والاستفادة ، مما يضع بين أيدينا الدليل على مشروعية الفهم والاستنباط وما ينتج عنه من أحكام ومفاهيم شريطة أن يجري هذا العمل على أساس منهج ومقدمات صحيحة ، وينتهي إلى نتائج صحيحة .

وكما هو واضح فأن للعقل دوراً كبيراً في مجال الفهم والاستنباط الفكري فهو يمارس دوره اعتمادا على القوانين والمدركات العقلية الأولية والمتفرعة عنها بمعزل عن الكتاب والسنة تارة ، أو بالقيام بعملية الفهم والاستنباط من النص (الكتاب والسنة تارة أخرى) ، أو بالفهم والاستنباط بتوسط الكتاب والسنة تارة ثالثة ، وفي كل مرحلة من مراحل عمله الثلاث ، لا يقر عمله ، ولا تقبل نتائجه ، إلا إذا كانت متطابقة مع الكتاب والسنة ، وجارية وفق منطقهما الشرعي ولا تخالفه .

ونحن عندما نتحدث عن العقل كمصدر للفكر الإسلامي ، إنما نتحدث عن النشاط العقلي الملتزم بالقرآن والسنة ، ولابد لنا ونحن نتحدث عن هذه الأداة العلمية لتحصيل العلوم والمعارف والأفكار أن نوضح أن العقل يمارس دوره المقر من قبل القرآن الكريم والسنة المطهرة في مستويين .

١ ــ **مستوى العقيدة والفكر** : وهو مستوى إثبات العقيدة وما يشمل من الاستدلال على وجود الله ، وإثبات الوحي والنبوة وحجتهما ، ووجود الآخرة ، ووجوب طاعة الله ، وما يتصل بالعقيدة من دراسات وبحوث واستدلالات ومناقشات ، كالدراسات الكلامية والفلسفية الواسعة الآفاق والمجالات وما يرتبط بها أو تتوقف عليه ، كتحديد منهج البحث واكتشاف قوانين التفكير (علم المنطق) ، وأمثال ذلك من الدراسات والأبحاث وأسس المعرفة [١].

٢ ــ **المستوى الثاني** : وهو اعتبار العقل كاشفاً عن الأحكام الشرعية ومدركاً لها ، أي اعتبار الدليل العقلي مساوياً لدليل الكتاب والسنة في القوة والحجية .

ولقد عد فريق من علماء المسلمين ــ وهم الأصوليون ــ العقل دليلا من أدلة الأحكام واعتمدوه أساساً إلى جانب الكتاب والسنة في عملية الاستنباط ، وعارضهم فريق آخر وهم النصيون ، واتخذوا موقفا سلبياً من دور العقل وقدرته على اكتشاف الأحكام الشرعية بصورة مستقلة من الكتاب والسنة ورفضوا استخدامه ، أو الاعتماد عليه في هذا المجال ، واستنكروا حجيته ، بسبب عدم وضوح المقصود عندهم من اعتبار العقل دليلاً من أدلة التشريع ، فتصور أن الفقهاء المؤمنين بدور العقل التشريعي يعتمدون العقل كمشرع ، والحقيقة أن المقصود بالعقل هو (إدراك العقل للحكم الشرعي) فيكون العقل مدركاً للحكم ، وكاشفاً عنه ، وليس مشرعاً له.

أهمية العقل ومكانته في الإسلام :

يقول الغزالي في الإحياء في بيان شرف العقل : والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجر منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين [٢].

---

[١] راجع : القول المبين في الدليل النقلي ومكانته عند المتكلمين ص ٥٢ وما بعدها .

[٢] ج ٩٩/١ دار الكتب العلمية بيروت ط ١/سنة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م حقيقة العقل للغزالي ج/١٠١ ، تفاوت الناس في العقل ج ١٠٤/١ ، محمد عقله في الإسلام مقاصده وخصائصه ص ١٨٢

يقول محمد عقله في أهمية العقل : ترجع أهمية العقل إلى اعتبارات عديدة استحق معها أن يكون إحدى ضروريات الحياة وتتمثل بالآتي :

١ ـ أن العقل هو القيمة الكبرى في الإنسان وهو الطريق إلى الإيمان بالخالق سبحانه من خلال التفكير والنظر والاعتبار في آيات الكون وإنما كان العقل كذلك لأن احساسات النفس وخطوات الوجدان غالبا ما تكون غائمة غامضة تخضع لحكم الهوى فيأتي العقل مقوما للانحرافات والشذوذ والشطط التي هي النتيجة الطبيعية لتحكم النزعات والأهواء [١] .

٢ ـ أن العقل هو أساس الإنسانية بتغيره ينحط إلى درك البهيمة وينحدر إلى درجة العبادات التي لا تعقل ، وهو مناط التكليف بكل أردني أو دنيوي وأساس المسؤولية الفردية في الحياة وبعد الممات .

لذا قيل : إذا أخذ ما أذهب فقد أسقط ما أوجب [٢]

٣ ـ أن العقل هو الركيزة الأساسية في التقدم الإنساني والحضاري فأما خطوه خطاها الإنسان في هذا المضمار هي نتاج النشاط الذهني والتفكير الدؤب المنبثق عن نعمة العقل التي أمد الله بها الإنسان .

٤ ـ العقل سر تكريم الإنسان وتفضيله على كثير من مخلوقات الله . ولقد كرمنا بني أدم " (الإسراء ٧٠) .

٥ ـ الاعتماد في العلم على ميزان العقل والاعتراف بأنه وسيلة المعرفة فالإسلام لا يضر للاعتماد على المعجزات ولا يعدل على الخوارق المعطلة للعقل . لقد عزز الله دعوة الأنبياء بالخوارق من المعجزات إثباتا لصدق دعواتهم وإقامة الحجة على المعاندين من أقوامهم . ولكنه في الوقت نفسه بين أن العقول إذا أقفت

، العقل وفهم القرآن ص ٢٠٥ للحارث بن أسد المحاسبي ط ١٣٩٨/٢ ـ ١٩٧٨م دار الفكر للطباعة والنشر / حسين القوتلي وانظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ١٣٥ وما بعدها .

(١) عقله ص ١٨٢ نقلا عن الأصول العامة لوحده الدين الحق للدكتور وهبه الزحيلي ط ١ سنة ١٩٧٢م نشر المكتبة العباسية دمشق .

(٢) انظر خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم للدكتور فتحي الدريني ط ١ ص ٢٢٩ سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م نشر دار الرسالة بيروت .

عن التفكير لن تجدي الآيات والمعجزات . قال تعالى﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس ١٠١) .

وقد مارس العلماء والفلاسفة الإسلاميون دوراً بارزاً في هذا المجال وأغنوا الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية ، النظرية والعملية ، وما اتصل بهذين العلمين ، وتأثر بهما من أبحاث وعلوم ودراسات كالفقه والأصول ، وعلم الأخلاق والسياسة والاجتماع وعلم النفس والسلوك .. الخ

كما مارس العقل دوراً أساسياً وبارزاً في اكتشاف الأفكار والمفاهيم والنظريات المختلفة من القرآن والسنة في مجال السياسة والاقتصاد والمال والاجتماع والثقافة والأخلاق والسلوك .. الخ

إن الإسلام لا يُتهم بعدم تقدير العقل عندما حدد له نطاقه أو القضايا التي له أن يبحثها والتي لا يجوز أن يلجها كقضية الذات الإلهية والقدر الروح ، أو معرفة علم الساعة ، أو نزول الغيث ، أو ما الأرحام ، أو الغيب المستقبلي ، أو الأرض التي ينتهي فيها أجل الإنسان ، أو المتشابه من القرآن الكريم أو التشريع وغيرها من القضايا التي ليس لأحد أن يدعي أنه باستطاعته أن يأتي فيها بالقول الفصل بعيدا عن الوحي الإلهي ، فالإسلام اهتم بالعقل أيما اهتمام واحتفل به أيما احتفال فقد جعل التكليف منوطا به وحرم كل ما يسئ إليه من المسكرات وقدر عقوبة صارمة لمن يفعل ذلك ، فقد ورد أن الرسول ﷺ ضرب الشارب بجريدة نحو أربعين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما [1] .

وما نود أن نضيفه هنا هو أن الوحي الإسلامي أعلى من قدر وشأن العقل فالقرآن الكريم يسير في عشرات الآيات إلى العمليات العقلية مثل التفكير والتذكير والتدبير والتأمل في هذا الكون ، ومع أن لفظه " عقل " لم ترد في القرآن الكريم إلا في الأفعال الدالة على العقل ــ يعقل وعقل ــ تعقلون وغيرها والتي وردت في تسع وأربعين آية . ولقد اهتم الدين الإسلامي بالعقل اهتماماً كبيراً وأكد على خطورته فجعله أساساً للتكليف فلا يكلف بالأحكام الشرعية إلا البالغ العاقل ،

---

(١) انظر الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٢٨٧ ومحاضرات في التيارات الفكرية للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص ٥٢ .

ومن هنا لم يعتبر الإسلام مكلفا ، لأن قدراته العقلية ضعيفة إذا كان مميزا ، ولم يعتبر المجنون مكلفا ، لأنه فقد عقله ، والقاعدة المعروفة في هذا الدين أن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب من التكاليف الشرعية ، وقد حث الإسلام على التدبر والتفكر في هذا الكون ، " أفلا تعقلون " " لآيات لقوم يعقلون " " وما يعقلها إلا العالمون " .

ويكفي أن نعلم أن القرآن الكريم ذكر العقل في ٤٩ موضعا وأفاض في ذكر الألفاظ المرادفة للفظ العقل مثل : اللب والفكر والحلم والنهي والحجر وغيرها [1].

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ {١٨}﴾(الزمر / ١٨)

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {٧} ﴾ (آل عمران / ٧)

وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الروم / ٨)

وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ {٣٢} ﴾(الطور / ٣٢)

وقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى {٥٤}﴾ (طه / ٥٤)

وقال تعالى :﴿.. وَلَيَالٍ عَشْرٍ {٢} وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ {٣} وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ {٤} هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ {٥}﴾ (الفجر / ٢ ــ ٥) .

وكما وردت في السنة الشريفة أحاديث تدل على الاهتمام بالعقل [1] مثل : قال رسول الله ﷺ : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى

---

(١) راجع : مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ١٠١ .

[1] شكك بعض العلماء في صحة أحاديث العقل ومن هؤلاء ابن حبان المتوفي ٣٥٤هـ الذي يقول : " لست أحفظ عن النبي ﷺ خبرا صحيحا في العقل ومما يحسن التنبيه عليه أن كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصح منها شيء وهي تدور بين الضعف والوضع ، وقد تتبعت ما أورده ابن أبي الدنيا في كتابه " العقل وفضله " فوجدتها كما ذكرت لا يصح منها شيء والعجب من مصححه الشيخ محمد

يدرك وعن النائم حتى يستيقظ [1] " فهذا الحديث الشريف يعفي من لا عقل لـه ومن كان عقله غير ناضج من تحمل المسئولية الكاملة عن السلوك غير المميـز لأن المؤاخذ هو العاقل فقط .

مما تقدم يمكن القول إن الأحاديث الشريفة بينت أهمية العقـل لأنـه منـاط التكليف ، وأن تضعيف الأحاديث التي وردت فيها ألفاظ تدل على مكانة العقـل والمبالغة فيها لا يلغي قيمة العقل ، ولا أرى أن أي مسلم عاقل يقول بتضعيف جميع الأحاديث التي تدل بمعناها على أهمية العقل ، وحيث إن القرآن يعترف بأهمية العقل فإن السنة لابد أن تدعم ذات الاتجاه حيث إنه بدون العقل يستحيل على الإنسـان إدراك مقاصد الشريعة ، ولذا جاءت النصوص بتشبيه من يعطلـون عقـولهم ولا يستخدمونها في مجالاتها الصحيحة بالأنعام بل هم أضل سـبيلا ، ونجـد في السـنة المطهرة أحاديث عديدة وردت فيها ألفاظ العقل بصيغة الفعل والمصدر [2].

بداية التفكير العقلي عند المسلمين :

نشأة الرأي في الإسلام وتطوره :

يرجع بعض الباحثين نشأة الرأي في الإسلام كمصطلح في الفكر الإسلامي إلى حديث الرسول ـ ﷺ ـ حين بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قاضـيا ووالياً وسأله : يا معاذ بم تحكم إذا عرض لك قضاء ؟

زاهد الكوثري كيف سكت عنها وقد تعرض كتاب داود بن المُجبَّرت سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م " فضل العقل " لنقد المحدثين أمثال العلامة ابن حجر الذي حكم على أحاديث العقل به بأنها موضـوعة وقال الذهبي عنه داود بن المجبر صاحب العقل وليته لم يُصنّفه انظر : مفهوم العقل والقلب ص ٣٦ وما بعدها وكما شكك بعض العلماء في صحة أحاديث العقل رأي بعضهم صحتها وساق حججا على ذلك ومن الذين يرون صحة أحاديث العقل حسين القوتلي ويسوق حججا على ذلك ومنها :

١ ـ أن تكذيب هذه الأحاديث ليس قويا ولا حاسما .

٢ ـ الأحاديث الواردة في العقل لا تتعارض مع القرآن .

٣ ـ تحدث الصحابة والتابعون عن العقل ولو لم يفعل الرسول عليه السلام ذلك لما فعلوه ، راجع دراسات في في الفكر التربوي الإسلامي لعبد الرحمن صالح ص ٧٦ .

[1]) الحديث ورد في سنن أبي داود كتاب الحدود ٤٥ / ١٩٧ .

[2]) انظر دراسات في الفكر التربوي الإسلامي لعبد الرحمن صالح عبد الله ص ٧٢ ـ ٧٣ دار البشـير ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

قال أقضي بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو . قال فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ على صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ـ ﷺ ـ [1]

وهذا الحديث واضح في بيان أن الرأي الاجتهادي كان موجوداً منذ الرسول ـ ﷺ ـ وأنه يأتي بعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأنه سنة متبعة وليس ابتداعا حيث أقر الرسول ـ ﷺ ـ معاذا على استعماله الرأي في القضايا التي لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة [2]

أطواره :

يمكن ان نقول إن الرأي كان في عهد النبي ـ ﷺ ـ يشتمل على وجهين :

أحدهما : تشريع النبي ـ ﷺ ـ بنفسه بالرأي من غير وحي .

والثاني : اجتهاد الصحابة في زمن الرسول ـ ﷺ ـ واستنباطهم برأيهم احكاما ليست في القرآن أو السنة .

أما الأول ـ اجتهاد النبي ـ ﷺ ـ فيما لا وحي فيه فيدل عليه قوله تعالى : "وشاورهم في الأمر" (آل عمران / ٥٩) والمشاورة لا تكون إلا في القضايا التي تتطلب حكما لم يرد فيه نص كمسألة الأذان وقتال المشركين يوم الحديبية ويوم بدر وفي أسرى بدر والخندق وغيرها من القضايا .

وثبت أنه عليه السلام كان يقضي القضية ويترل القرآن بعد ذلك بغير ما كان قضى به فيترك ما قضى به على حاله ويستقبل ما نزل به القرآن ، والحكم بغير القرآن لا يكون إلا بالاجتهاد .

واحب أن أنوه أن الاجتهاد بالرأي في عهد الرسول ـ ﷺ ـ لم يكن مستقلا عن الوحي ؛ لأن الرسول الكريم كان هو السلطة التشريعية الوحيدة فلا رأي يخالف الرسول ولا اجتهاد لا يتفق مع ما ورد في كتاب أو سنة ، ولذلك لم يوجد

---

[1] الحديث أخرجه أبو داود في سننه والترمذي في السنن والإمام أحمد في مسنده .

[2] انظر محاضرات في التيارات الفكرية للدكتور الفيومي ص ٣٤ .

رأي صحيح في عهده عليه السلام إلا ما صححه الوحي أو رأي خطأ إلا إذا خطأه الوحي . لأن الوحي كان لا يقر النبي ــ ﷺ ــ الذي يتولى الفصل بين الآراء على خطأ .

إن الاجتهاد قضية مسلم بها ، فقد اجتهد رسول الله ــ ﷺ ــ في بعض القضايا التي سئل عن حكمها ، فكان ــ ﷺ ــ يفتي السائل إذا تأخر الوحي عن بيان الحكم ، ولكن نقول : إن هذا الاجتهاد منه ــ ﷺ ــ لا يعتبر مصدراً مستقلا لأنه يرجع إلى الوحي في واقع الأمر ، من بيان وجه عدم الصواب ، أو الإقرار بالصواب [١].

ومن أمثلة اجتهاده ــ ﷺ ــ أنه شاور أصحابه في مسألة أساري بدر ، فأشار أبو بكر رضي الله عنه بالفداء ، وأشار عمر رضي الله عنه بالقتل ، واختار النبي ــ ﷺ ــ رأي أبو بكر ، فنزلت الآيات تؤيد رأي عمر ، قال تعالى : " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم " (الأنفال /٦٧) [٢]

وهناك أمثلة أخرى كثيرة كإذنه ــ ﷺ ــ للمنافقين بالتأخر عن تبوك ، وغيرها من الحوادث .

اجتهاد الصحابة في عهده ــ ﷺ ــ في حضرته وفي غيبته أثناء حياته :

أما اجتهاد الصحابة في حضرته فلم يقف الأمر عند اجتهاده عليه السلام بل تعداه إلى أن الرسول ــ ﷺ ــ أذن لبعض أصحابه بالاجتهاد في حضرته . من ذلك ما روي عن أبي سعيد الخدري قال : (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل النبي ــ ﷺ ــ إلى سعد فأتي على حمار ، فلما دنا من المسجد قال

---

(١) راجع فقه السيرة للدكتور محمد رمضان البوطي ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ .

للأنصار : قوموا إلى سيدكم ـ أو خيركم ـ فقال : هؤلاء نزلوا على حكمك ، فقال : تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، قال : قضيت بحكم الله [١]

وروى عنه أنه أمر عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهني أن يحكما بين خصمين وقال لهما : إن أصبتما فلكما عشر حسنات وإن أخطأتما فلكما حسنة واحدة .

وأما اجتهادهم أثناء حياته في غيبته فيدل عليه إقرار الرسول ـ ﷺ ـ قضية الاجتهاد من الصحابة في غيابه بعد عرض القضية على الكتاب والسنة أولا لحديث معاذ بن جبل عندما أرسله إلى اليمن قاضياً ، قال له : " كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ـ ﷺ ـ قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال : اجتهد رأيي لا آلو ، قال : فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ صدري ، ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله " [٢] وهذا الحديث يُعَدُ أصلا في اعتبار الاجتهاد والأخذ به .

وروى أنه عليه السلام أنه قال لمعاذ وأبي موسى الأشعري وقد أنفذهما إلى اليمن : بم تقضيان فقال : إن لم نجد الحكم في الكتاب ولا في السنة قسنا الأمور بالأمر فما كان أقرب إلى الحق عملنا به " [٣] والنبي أقرهما على ذلك فكان حجة .

بقي أن يقال : إذا كان اجتهاد الرسول ـ ﷺ ـ مرده إلى الوحي ، فما فائدة الاجتهاد والإذن به ؟

الواقع إن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع ، وكونها خاتمة ، يعني أنها دين الناس إلى يوم القيامة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ ديناً ﴾ (المائدة / ٣) ، وقال عز من قائل : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام / ٣٨)

---

[١]) الحديث رواه البخاري ومسلم .

[٢]) الحديث ورد في مصنف ابن أبي شيبة ٢٤٠/٧ دار الفكر بيروت لبنان.

[٣]) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٧/٢/٢ ، ١٢١/٢/٣ .

ومعلوم أن هذا لم يكن إلا في نطاق قواعد الدين ، ونصوصه الإجمالية ، فهي كلية شاملة ؛ لا نقص فيها ولا تفريط ، تامة محكمة .

أما التفاصيل والجزئيات ، فأمرهما متروك للمجتهدين ، فالنصوص محدودة ، والأحداث والوقائع غير محدودة .. لكل عصر وزمان قضاياه وأحواله ، فلو لم يكن هناك اجتهاد ، لاستنباط الأحكام المستجدة لوقفت الشريعة الإسلامية عن أداء مهمتها في التشريع والتقنين ، وأصبحت غير صالحة لاستيعاب مستجدات الأحداث ، وإثبات الأحكام اللازمة لضبط أصول هذه الشريعة ، ودوامها مادام الزمان .

الرأي في عهد الخلفاء الراشدين :

مضى عهد الرسول ـ ﷺ ـ بعدما وضح الرسول للصحابة أن الاجتهاد بالرأي متاح للمفكرين في القضايا التي لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة ، وتوفى الرسول ـ ﷺ ـ والأمر على ذلك عقيدة راسخة في الاجتهاد بالرأي ، فلما تولى الخلفاء الراشدون مقاليد الحكم ومن الله على المسلمين بفتح البلاد وجد المسلمون أنفسهم أمام قضايا لم يألفوها من قبل أتتهم من ثقافات وعادات البلاد المفتوحة ، وتبرز أسئلة ليس لها حكم سابق في الكتاب أو السنة فهناك غنائم وثروات تحتاج إلى نظر ، وهناك من يظل يحتفظ بعقيدته ، وهنا وجد فقهاء الصحابة يتفقون على ضرورة إيجاد حكم شرعي لما يستجد عن طريق الاجتهاد واستخدام القياس مراعاة للمصلحة العامة والمقاصد العامة للتشريع ، وليس هذا بجديد عليهم بل أخذوه عن الرسول ـ ﷺ ـ واستعملوه في عهده وأقرهم عليه كما ذكرنا ذلك آنفا .

وكان منهجهم في الاجتهاد عند وقوع المشكلة التي لا نص على حكمها يقوم على أساس البحث عن الحكم في كتاب الله أولا فإذا لم يجدوا فيه انتقلوا إلى السنة فإن وجدوا فيها الحكم اخذوا به ، وإذا لم يجدوا ما يطلبون قام الخليفة بجمع الصحابة في المسجد واستشارهم في الأمر ، فإذا اجتمعوا يسأل بعضهم بعضا عما إذا كان هناك نص شرعي لها ، فإذا كان وأخبر به أحدهم صدقه الصحابة وأخذوا به وانتهى الخلاف بينهم ، وإذا لم يكن بينهم من سمع حديثا في تلك المشكلة اتجهوا إلى الرأي ، وإذا ما أفتاهم صحابي سواء كان ذلك المفتي هو الخليفة أو غيره

واستأنسوا في رأيه حلا وجيها أخذوا به وحسموا الخلاف فيما بينهم واعتصموا بحبل الله مخافة الفتن ، وذلك يرجع إلى عدة أسباب :

أولا : إن دار الخلافة كانت في المدينة بيئة الرسول ـ ﷺ ـ وبيته .

ثانيا : أن الصحابة رضي الله عنهم لم يتفرقوا بعد في الأمصار فكان من السهل أن يجتمع فقهاء الصحابة ليقروا رأيا ويعقدوا عليه الإجماع .

ثالثا : قرب عهدهم بالرسول ـ ﷺ ـ زمانا ومكانا .

رابعا : لم تظهر بعد في المجتمع الإسلامي المشاكل التي تمثل ثقافات الشعوب المختلفة .

خامسا : قوة الخليفة وقدرته على السيطرة ومواجهته المشاكل التي تستجد .

سادسا : لم تظهر بعد الميول السياسية والمذهبية وأصحاب الملل والنحل الباطلة مثل الذي ظهرت فيما بعد والتي عملت على ترويج أحاديث مكذوبة وموضوعة اجتاحت فيما بعد إلى تحقيق دقيق لفرزها [1].

وإذا اختلفوا فيه أخذ برأي الأكثرية ويعتبر الأكثرية اجتهادا ويؤكد هذا المنهج ما رواه البغوي في مصابيح السنة قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به وإن لم يجد في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك سنة قضى بها فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء ، فإن أعياه أن يجد في سنة عن رسول الله جمع رؤوس الناس وخيارهم فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك فإن أعياه في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به وإلا دعا رؤوس المسلمين فإن اجتمعوا على شيء قضى به [2] .

لهذه الأسباب كلها يتضح أن الصحابة اجتهدوا واعملوا عقولهم في المسائل التي لا نص فيها ومنها :

---

[1]) راجع : محاضرات في التيارات الفكرية للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص ٣٦ .

[2]) انظر أعلام الموقعين لابن القيم ج ١/ ٧٠ .

ـــ اجتهاد الصحابة في ميراث الجد مع الأخوة هل يعامل معاملة الأب فيأخذ مكانه في الإرث فيحجب الإخوة ؟ أم يعمل معاملة أخرى فيرث معه الإخوة [١] .

ـــ اجتهاد أبي بكر في أخذ الزكاة من بني حنيفة وقتالهم على منعها .

ـــ تعريف الكلالة الواردة في آيات المواريث .

ـــ انتخاب أبي بكر خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ـــ ﷺ ـــ قياسا على تقديمه إمام للصلاة ، وقالوا : رضيه رسول الله ـــ ﷺ ـــ إماما لديننا أفلا نرضاه إماما لدنيانا ؟.

ـــ اتفقوا على جمع القرآن الكريم في مصحف واحد .

ـــ تحريق اللوطية وإذاقتهم حر النار في الدنيا قبل الآخرة .

ـــ اجتهادهم وخاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سهم المؤلفة قلوبهم من أموال الصدقات حيث إنه منع المؤلفة قلوبهم سهمهم من الزكاة ، وقال لهم : " لا حاجة لنا بكم ، فقد أعز الله الإسلام ، وأغنى عنكم ، فإن أسلمتم ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم " .

وقد أثار هذا الموقف الاجتهادي من عمر رضي الله عنه تعليقات وتساؤلات كثيرة ، واختلف العلماء فيه بين ناقد ومؤيد في الماضي والحاضر فقال البعض : إن عمر بن الخطاب أول من سار إلى التشريع العام المباشر ، فاعتبر النصوص التشريعية معلولة بعلل مقصودة ، فإذا زالت منها هذه العلل ، اقتضى ذلك زوال حكمها .

وظن البعض : أن عمر نسخ نصوصاً من القرآن ، منها سهم المؤلفة قلوبهم ، الذي فرضه الله لهم بنص قاطع في سورة التوبة .

وقال البعض : إن ذلك من قبيل تعليق النص أو إيقافه لمصلحة عارضة ، فمتى زالت عاد العمل بالنص .. وفتح باب الاجتهاد في هذا تمكين للشريعة أن تكون مطواعة مرنة .

---

[١] راجع المدخل للتشريع الإسلامي للدكتور محمد فاروق النبهاني ص ١١٨ طبعة أولى سنة ١٩٧٧ وتاريخ الفقه الإسلامي للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٧ .وتاريخ التشريع الإسلامي لإبراهيم دسوقي الشهاوي ص ٥١ طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة .

ومن الناس من يسلك مسلكا آخر في تخريج صنيع عمر فيقول : إن عمر لم يخالف الآية ، لأن الله تعالى إنما جعل الأصناف الثمانية في الأمة إنما هي لحصر وبيان المصارف الثمانية التي تدفع فيها الزكاة دون غيرها ، لا على سبيل الإلزام أن تصرف على الأصناف الثمانية ، وعلى هذا فمن صنع زكاته كلها في صنف واحد من الثمانية برئت ذمته ، كما تبرأ ذمة من وزعها على الثمانية ، وهذا مما أجمع عليه العلماء .

ـ اجتهادهم في مسألة قتل الجماعة بالواحد .

ـ اجتهادهم في طلاق الفرار هل يمنع من الميراث .

ـ اجتهادهم في عدة الحامل المتوفي عنها زوجها ، هل تنتهي عدتها بوضع الحمل أو بأبعد الأجلين ؟

ـ الطلاق الثلاث يقع طلقة واحدة أو ثلاث ؟ [1]

ـ زواج المرأة المعتدة أثناء العدة هل يصح هذا الزواج ؟ [2]

هذه صور موجزة مختصرة عرضتها لبيان أن الخلاف في الرأي كان قائماً في عهد الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ وأن ما إن انقضى عصر النبوة ، حتى تفرق أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ في البلاد يحملون ما أخذوه من العلم من الكتاب والسنة ، فسئلوا فأجاب كل واحد حسب ما حفظه واستنبطه ، فعند ذلك وقع الاختلاف في الرأي بينهم في بعض المسائل .

وإزاء اختلاف مذاهب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وجدت مذاهب مختلفة أيضا للتابعين ، ووجد في كل بلد إمام مجتهد مثل : سعيد بن المسيب في المدينة المنورة ، وعطاء بن أبي رباح في مكة ، والشعبي في الكوفة ، والحسن البصري في البصرة ، وطاووس في اليمن .. وغيرهم .

واختلف الفقهاء من بعدهم ، فمنهم من أخذ بالرأي ، ومنهم من أخذ بالرواية، وقامت على هذه الأصول مدارس فقهية كثيرة ، والذين أخذوا بالرأي

---

[1] المدخل للتشريع الإسلامي دكتور محمد فاروق النبهاني ص ١٢١ .

[2] المرجع السابق ص ١٢٢ .

كان لظهور حركة الوضع في الحديث بشكل خطير مما أضعف الثقة بالروايات المنقولة عن رسول الله خشية أن تكون الروايات مكذوبة ، وهكذا يبقى الاجتهاد بالرأي أصلا من أصول التشريع المعترف بها لدي كافة المذاهب الفكرية بعد الكتاب والسنة النبوية .

وهنا لابد لنا من بيان قضية مهمة في موضوع الاجتهاد وهي :

أن الصحابة الكرام ، ومن بعدهم من الفقهاء والعلماء المجتهدين ، الذين أخذوا بالرأي ، وبنوا الحكم عليه ، ما كان منهم أحد يقطع بأن ما وصل إليه هو حكم الله ، وإنما كان يقول : هذا رأيي فإن كان صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني .

حتى أن كاتب عمر أراد أن يكتب : " هذا ما رأى الله ورأى عمر .. فقال له عمر رضي الله عنه بئسما قلت ، بل قل:هذا ما رأى عمر فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر .

وشيء آخر أيضاً : أنهم ما كانوا يلزمون أحداً بالأخذ بآرائهم ما دامت اجتهاداً لا نص فيها ، فلكل رأيه واجتهاده .

أورد ابن القيم في أعلام الموقعين دليلا على ذلك ، ما روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقى رجلا فقال : ما صنعت؟ قال : قضى علي وزيد بكذا ، قال : لو كنت أنا لقضيت بكذا ، قال فما منعك والأمر إليك ، قال : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه ، ولكني أردك إلى رأي ، والرأي مشترك .

فلم ينقض ما قال علي وزيد ، وهذا ما يعبر عنه باحترام الرأي الآخر ، فالاختلاف بالرأي نتيجة حتمية للاجتهاد ، وهو دليل حيوية الفكر الإسلامي ، كما أنه دليل على إعمال الفقهاء عقولهم ، وشدة حرصهم على الوصول إلى الحق والصواب ، وإنما كان الخلاف أمراً طبيعياً للاجتهاد بالرأي ، لأن العقول ليست في مستوى واحد ، كذلك مدارك الفقهاء ليست على وتيرة واحدة ، وكذلك عمق الملكة الفقهية ليست في الجميع ، وعلى هذا فلا يجوز أن تضيق النفس لاختلاف الفقهاء ، بل تعد ذلك ثروة فقهية تشريعية تركها السلف للخلف ، على أن هذا

القول لا يعني أبداً أننا نحرص على ا
طبيعي في كل اجتهاد ، وأنه بجوهره
الملائمة على الواقع .

فإذا عرفنا هذه الحقيقة نجونا م
بعض بلا دليل أو برهان ، فالشريعا
معين ، سواء أكان هذا المجتهد صـ

وأخيراً نستطيع أن نقرر أن
فكر حضاري متقدم وثمرة جهد
اقتضتها دوافع المرونة والخلود لـ

وإذا كان من المسلمات وا
أصحاب المذاهب ، في العديد م
فمما لا جدال فيه أيضا أن أئمـ
كانوا يعلمون على إحيائها وتج
وأمور ويفتون فيما يقع من الحا
مذهب إمامهم ، ويقولون : ه

هذا فإن التجديد واجب
بنشأ ، ولكنه يكتشف ، لأن
فيها ، وما مهمة المجددين الذ
في هذه الأمة — ﷺ —
سنة من يجدد لها دينها "

والتجديد لا يمكن أن
الفهم لبعض النصوص التي

وإذا كان الاجتهاد
العقل في الإسلام ، فالأمر

فنحن إذا نظرنا إلى أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة ، نجد أنهم لم يطلبوا ولم يقروا أحداً على تقليدهم بما وصلوا إليه من أحكام ، فلا أبو حنيفة ولا مالك ولا الشافعي ولا أحمد ــ رحمهم الله ــ ولا غيرهم من العلماء أمروا بذلك بل كانوا يقولون عن أسلافهم : هم رجال ، ونحن رجال ، ولنا أن نجتهد كما اجتهدوا[١] ، وكان الإمام أحمد يوصي أصحابه : لا تقلدوني ولا مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ، وخذوا من حيث أخذوا [٢] وكذلك كان الفقيه ابن حزم من أشد علماء الإسلام رفضا للتقليد وكان يدعو علماء الإسلام إلى نبذ التقليد في الدين ويدعوهم إلى الاجتهاد [٣].

لقد كان باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه في عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وعدة أجيال أخرى بعدهم .

لكن فريقاً من العلماء المتأخرين ، أوهموا أنفسهم أولا ، ثم أوهموا الناس ثانيا أن باب الاجتهاد قد أغلق نهائياً ، وما هذه المقولة إلا صدى لما ردده المسلمون قبل ألف عام من الآن ..

والحقيقة أن هذه المقولة والإنسياق وراءها ، كان أحد المعوقات لحركة الفقه الإسلامي الذي كان من الواجب أن يستوعب كل الوقائع والمستجدات في حياة الأمة الإسلامية .

وإن الذي يقول بانسداد باب الاجتهاد وإغلاقه ، يحكم على الإسلام بالإعدام؛من حيث إنه دين جامد،لا يساير الحياة ولا يجاريها،وليس لديه حلول لمشاكلها المتعددة، والمتنامية والمتزايدة زمناً بعد زمن،وهذا ما يتهم به الغربيون الإسلام والفكر الإسلامي بأنه دين جامد وفكر متخلف لا يساير الحياة ولا يجاريها.

---

(١) راجع : الثقافة الإسلامية للدكتور عزت العزيزي ص ٦٩ ، ٧٠ طبعة ثانية سنة ١٤١٠ / ١٩٩٠م والمدخل للتشريع الإسلامي للنبهاني ص ٢٤٠

(٢) راجع أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية جـ ٢/ ٢٠٠ .

(٣) راجع : الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي جـ ٦/ ١٢٦ ــ ١٣٣ مطبعة السعادة القاهرة .

٢٨٠ فنحن إذا نظرنا إلى أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة ، نجد أنهم لم يطلبوا ولم يقروا أحداً على تقليدهم بما وصلوا إليه من أحكام ، فلا أبو حنيفة ولا مالك ولا الشافعي ولا أحمد ــ رحمهم الله ــ ولا غيرهم من العلماء أمروا بذلك بل كانوا يقولون عن أسلافهم : هم رجال ، ونحن رجال ، ولنا أن نجتهد كما اجتهدوا[١] ، وكان الإمام أحمد يوصي أصحابه : لا تقلدوني ولا مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ، وخذوا من حيث أخذوا [٢] وكذلك كان الفقيه ابن حزم من أشد علماء الإسلام رفضا للتقليد وكان يدعو علماء الإسلام إلى نبذ التقليد في الدين ويدعوهم إلى الاجتهاد [٣].

لقد كان باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه في عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وعدة أجيال أخرى بعدهم .

لكن فريقاً من العلماء المتأخرين ، أوهموا أنفسهم أولا ، ثم أوهموا الناس ثانيا أن باب الاجتهاد قد أغلق نهائياً ، وما هذه المقولة إلا صدى لما ردده المسلمون قبل ألف عام من الآن ..

والحقيقة أن هذه المقولة والإنسياق وراءها ، كان أحد المعوقات لحركة الفقه الإسلامي الذي كان من الواجب أن يستوعب كل الوقائع والمستجدات في حياة الأمة الإسلامية .

وإن الذي يقول بانسداد باب الاجتهاد وإغلاقه ، يحكم على الإسلام بالإعدام؛من حيث إنه دين جامد،لا يساير الحياة ولا يجاريها،وليس لديه حلول لمشاكلها المتعددة، والمتنامية والمتزايدة زمناً بعد زمن،وهذا ما يتهم به الغربيون الإسلام والفكر الإسلامي بأنه دين جامد وفكر متخلف لا يساير الحياة ولا يجاريها.

---

(١) راجع : الثقافة الإسلامية للدكتور عزت العزيزي ص ٦٩ ، ٧٠ طبعة ثانية سنة ١٤١٠ / ١٩٩٠م والمدخل للتشريع الإسلامي للنبهاني ص ٢٤٠

(٢) راجع أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية جـ ٢/٢٠٠ .

(٣) راجع : الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي جـ ٦/١٢٦ ــ ١٣٣ مطبعة السعادة القاهرة .

ولقد حمل ابن القيم ــ رحمه الله ــ في أعلام الموقعين ، على التقليد بغير دليل حملة قاسية [١]، وكذلك فعل الإمام الشوكاني ــ رحمه الله ــ وغيرهما من الأئمة الفقهاء .

قال الشيخ محمد عبده ــ رحمه الله ــ في تعليقاته على "العقائد العضدية" : "ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ، ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ، لم تجب عصمته ، فهو معرض للخطأ ، ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره ، أن يصل إلى الحق ويدرك اليقين" .

وهذا الكلام مستفاد من حديث رسول الله ــ ﷺ ــ : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " [٢]

وإذا كان التجديد في الفقه والفهم مطلوباً ، فإن مسؤولية ذلك واقعة على عموم المسلمين ، ليكون من بينهم طائفة من الأئمة المجتهدين ، والفقهاء المخلصين ، لينهضوا بشأن الأمة ويبعدوا عن النصوص تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

لذلك كان على العلماء والمفكرين الذين تأهلوا بشروط الاجتهاد والاستنباط أن يعملوا بهذا الاتجاه ، لبيان شمولية الرسالة الإسلامية وواقعيتها .. لأن من سمات العصر الذي نعيش فيه تعدد الوقائع ، وازدياد الحوادث والقضايا ، التي لم يسبق أن وردت بخصوصها حلول قاطعة ، وإجابات وافية كافية مثل : الشؤون الاقتصادية : من معاملات البنوك والمصارف ، ومصير فوائد الأموال المودعة ، والاعتمادات والحسابات الجارية ، وكذلك مشاكل عقود التأمين ، وأمور الزواج ، ومشاكل الطلاق الثلاث ، والطلاق المعلق وقضايا المسلمين والمسلمات في البلاد الأجنبية وأحوالهم ..

---

(١) المرجع السابق ١٨٨/٢ .

(٢) الحديث ورد في الصحيحين وأصحاب السنن وأحمد .

٢٨٢ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد ظهرت بوادر الصحوة الإسلامية ، التي تتجلى في عزم المسلمين على الرجوع الى الإسلام الصحيح النابع من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، لتحكيمهما في كل ما يستجد من أحداث ووقائع ، مع الاستفادة من كل الحقائق التي تفيد الإنسان ، والتي هي محصلة المسيرة التاريخية للحضارة الإنسانية المعاصرة .

لهذا كله فقد أدركت البشرية اليوم أن الشريعة الإسلامية هي الدواء الناجع لكل أمراضها ومشاكلها ، وهي في بحثها عن المنقذ لها مما حاق بها من مشكلات إنما تبحث عن الإسلام دون أن تعرف حقيقته .

ومع أن الوحي الإلهي هو أساس التشريع الإسلامي وينبوعه الخصب ، فإن الإسلام لم يترك العقل البشري هملا ، بل فتح الباب لإعمال هذا العقل في البحث والتخطيط واستنباط الأحكام من مصادرها ، ووضع الحلول لكل القضايا المطروحة على الساحة الإنسانية ، لأن الإسلام يحوي نظرة شمولية ترى أن البشر كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله .

ولقد جعل الله تبارك وتعالى مناط التكليف ، وهو مصدر التكريم لبني آدم وأكثر ما يظهر عمل العقل البشري إنما هو في نطاق التعرف على أحكام الله في مجالين مهمين :

الأول : معرفة المقاصد والأهداف من مضمون النصوص الشرعية .

الثاني : استنباط واستخراج أحكام القضايا المستجدة مما لم يرد في حكمها نص شرعي صريح ، ومعرفة الأحكام واستنباطها تارة يكون بالقياس ، وأخرى بالاجتهاد الجماعي ، وثالثة بالرأي الاجتهادي ، وجميع صنوف هذه المعرفة تعتبر اجتهادا يحث عليه الشرع .

ولهذا فإن الاجتهاد بالرأي يعتبر حركة علمية بناءة في شرعنا ، كما يعتبر مرتكزاً مهما للحضارة الإسلامية ، وسبيلا واضحاً لتحقيق الغاية من البيان الإلهي ، وإثبات عبودية الإنسان لله تبارك وتعالى ، وأيضا يعد الاجتهاد طريقاً من طرق الحفاظ على خلود هذا الدين وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان .

يقول الإمام الشافعي ـــ رحمه الله ـــ في كتابه الرسالة : (كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم ، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة ، وعليه فإذا كان فيه بعينه حكم لزم إتباعه ، وإذا لم يكن فيه حكم بعينه ، طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد) [١].

كذلك جعل القرآن الكريم منزلة سامية للعلماء وأهل الذكر والمعرفة والاستنباط ، وأمر الناس بالرجوع إليه ، فيما يحتاجون إليه من أحكام ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء/٨٣)

---

(١) راجع ص ٢٠ تحقيق أحمد محمد شاكر .

الفصل الرابع

خصائص الفكر الإسلامي

أولا : خصائصه : نقصد بخصائصه الميزات التي يمتاز بها عن غيره ، والفكر الإسلامي يمتاز بميزات وخصائص وصفات نوعية واضحة ومحددة تميزه عن غيره من الأفكار والنظريات ، وتمنحه الحيوية والقدرة على العطاء والنمو الأصيل ، ومواجهة مشاكل الحياة المختلفة ، وتقديم الحلول لها.

ويمكننا أن نلخص أهم هذه الخصائص بما يأتي :

١ ــ يحترم العقل ويعلي منزلته .

يمتاز الفكر الإسلامي ، بأنه نشاط يقوم على أسس ومنطلقات عقلية . ذلك لأن الإسلام يؤمن بدور العقل في مجال المعرفة الإنسانية ، معتمداً على مبدأين أساسيين في هذا المجال هما :

أ ــ الإطلاق في الحقيقة بمعنى (مطابقة الصورة الذهنية للواقع)

ب ــ الإيمان بقدرة العقل على اكتشاف الحقيقة .

وكان من احترامه للعقل وإكباره لدوره أنه جعل معجزة الرسول ــ ﷺ ــ معجزة عقلية تقوم على البيان والمعاني والتشريع كما تقوم على النظر والتدبر والتفكير [1] .

كما أعطى العقل دوراً بارزاً في الفكر الإسلامي ، ومهمة أساسية ، فللعقل حق الفهم والاستنباط ، واكتشاف المعارف والعلوم والمفاهيم والنظريات من القرآن والسنة ، وإسنادها إلى الله تعالى ، ويصح القول عندئذ أن هذا الفكر فكر إسلامي ؛ فيقال هذا رأي الإسلام الاقتصادي ، أو الفلسفي ، أو السياسي أو الاجتماعي .. الخ ، فواضح لدينا أنه لا يصح نسبة شيء إلى الإسلام ــ أي إسناده إلى الله تعالى ــ فيقال هذا إسلامي ، وهذا غير إسلامي ، إلا بعد التأكد من صدوره عن الله ، وتبليغه بواسطة الرسول الكريم ، ومادمنا قد تأكدنا من أن الإسلام قد آذن لنا أن

---

(١) راجع دراسات في الفكر العربي الإسلامي ص ٥٩ للدكتور إبراهيم زيد الكيلاني ودكتور همام عبد الرحيم سعيد ط أولى سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٥م .

نستخدم العقل في الفهم والاستنباط والاكتشاف ونوظف طاقة العقل في كل مجال ، في مجال التشريع والفكر والمعرفة ، ونستنتج الأفكار والمفاهيم السياسية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية والاجتماعية .. الخ ، من مصادرها الأساسية ، استطعنا القول عندئذ أن الفكر المستفاد عن طريق العقل بهدى الشرع ، فكر إسلامي .

٢ ــ السعة والشمول [1] :

ومن أبرز خصائص الفكر الإسلامي أنه فكر واسع وشامل لكل جوانب الحياة ونواحيها الدنيوية والدينية وإن السبب الأساسي لهذه السعة والشمول ، هو سعة وشمول آفاق المصادر التي يعتمدها الفكر الإسلامي في مادته وقوامه .

وما بين أيدينا من فكر ومعرفة وثقافة إسلامية ، شاهد ودليل على ذلك .

فقد تناول العلماء والفلاسفة والمفكرون والباحثون كل شؤون الحياة ونواحيها ابتداء من نظرية المعرفة ، ومنهج البحث والتفكير ، وفلسفة الوجود وتفسير الحياة والكون ، وحتى أصغر قضية في حياة الإنسان .

لقد درسوا قضايا العقيدة والأخلاق والنفس والسلوك والتشريع وفلسفة التاريخ وما دق وجل من المعارف والعلوم والفنون ، حتى استوعبت كل المجالات والآفاق ، وثبتت لها الأسس والقواعد والكليات التي بإمكانها أن تستوعب كل جديد في الحياة ، وتقدم له الحل ، بل إن الفكر الإسلامي بأسسه وكلياته يملك السبق .

فهو يقود الحياة ، ولا يسير وراءها ، ولئن شاهدنا بعض المساحات الشاغرة في الفكر والمعرفة ، السبب في ذلك تأخر الباحثين والمفكرين الإسلاميين ، نتيجة للانتكاسة الفكرية والحضارية التي مني بها المسلمون ، في المرحلة الأخيرة ، وليست بسبب عجز الفكر الإسلامي والمعارف الإسلامية الذاتي .

لذا فإن الباحث في أي باب وأفق من أفاق الفكر والفن والأدب والمعارف والعلوم الإنسانية ، يجد مادة فكرية ، وثروة عظيمة تمده بما يحتاج ، لتغطية البحث والنظرية في هذا المجال وذلك الموضوع .

---

(١) راجع الثقافة الإسلامية للدكتور عزت العزيزي ص ٧٧ .

٣ — له تأثير في حياة الفرد والجماعة :

ومن خصائص الفكر الإسلامي أنه يمتاز بالتأثير والفاعلية في حياة الفرد والجماعة ، ويمنحها قوة حركية ، تدفع طاقة الفرد ، وقوى الأمة النفسية والمادية ، نحو السمو والتكامل وتصنع منها واقعا متحركا ، فهو فكر يستهدف بناء الحياة وتحريكها ، كما يستهدف تفجير طاقات الإنسان ، وتحويلها إلى سلوك وعمل ومواقف وعطاء .

إن قيمة الفكر في حياة الإنسان تكمن في قدرته على تحريك الإنسان ، والتأثير في نفسه ، وتفجير طاقاته الحركية الإيجابية ، ليصنع منها حياة وحضارة إنسانية سامية .

والفكر الإسلامي ، كما يشهد تاريخه ، وواقعه العملي . فأنه فكر يمتلك القابلية الكاملة على وضع الإنسان في دائرة الحركة والعطاء . لأنه فكر يرفض التحجر والتوقف والجمود ، من الناحية النظرية . كما يرفض أن يكون فكرا أكاديميا بعيدا عن الجانب العملي من حياة الإنسان ، ويريد أن يصنع من الإنسان قوة متحركة ، وحركة ذاتية ، يؤثر فيما حوله ، ويتفاعل مع العالم المحيط به ، عالم الطبيعة والحياة والإنسان .

أن مشكلة الإنسان المسلم اليوم ، هي ليست مشكلة فكرية نظرية . بقدر ما هي مشكلة تحريك وانبعاث وحركية . وتحويل للطاقة الفكرية والمادية والنفسية إلى صيغة حياة وعطاء وإنتاج وعمل .

ومتى ما تجاوز الإنسان المسلم هذه العقبة ، فسيتحول إلى قوة حركية . وإنسان مبدع وبناء ، يؤثر فيما حوله من ركود وتخلف وجمود

فقد استطاع الفكر الإسلامي بما فيه من قوة واتجاه حركي وعملي . وقدرة ارتقائية ، واتجاه تكاملي ، إن يصنع من المجتمع الجاهلي الغارق في الركود والتخلف والعفوية ، أمة قوية متحركة ، وقوة دافعة ، في حركة التاريخ

وهو قادر اليوم على تفجير وتحريك وتنظيم وتوجيه طاقة الإنسان . وإغنائها بالعطاء والعمل والإبداع .

٤ ــ له ضوابط محددة تحفظ أصالته وبنيته المتماسكة :

ومن الخصائص التي يمتاز بها الفكر الإسلامي أنه فكر لــه أصــوله وموازينــه وضوابطه المحددة التي تحفظ له أصالته وبنيته المنطقية المتماسكة

والباحث والمفكر الإسلامي عندما يبحث ويفكر في قضايا مستجدة ، كقضايا الاجتماع والنفس والجمال والتربية وتفسير التاريخ والأخلاق والمــال والاقتصــاد والعلاقات الدولية ومسائل الحياة الحضارية كالحرية وأمثالها ؛ يجد أمامه مادة فكرية إسلامية ومقاييس وضوابط تحدد مسار تفكيره ومنهج بحثه والنتائج الــتي يتوصــل إليها عندما يثبت التعريف العلمي ، وعندما يطرح أي مســألة فكريــة ، وعنــدما يكتشف تفسيراً لأية قضية ، وعندما يضع تنظيماً لأية قضية ، فهو يجد نفسه ملتزماً بأسس وموازين تنظم تفكيره وبحثه وتعاريفه وتفسيره للأشياء ، وبذا يســتطيع أن يحقق الأصالة والالتزام وتتسع أمامه دائرة البحث والاستنتاج والبناء الفكري حول تلك الأسس والمحاور .

٥ ــ الأصالة :

ومن خصائص الفكر الإسلامي أنه أصيل أي له أصول إسلامية يقــوم عليهــا ويستمد منها وجوده فلا هجانة فيه ولم يخالطه فكر غريب عن الأصول والمنابع .

ويكمن سر أصالة الفكر الإسلامي في أصالة مصدره ووجود المنــهج القــويم الذي يحفظ هويته ووجود طريقة البحث والتفكير الإسلامي .

قال تعالى : " صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابــدون" (البقــرة ١٣٨) "وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفــرق بكــم عــن سبيله" (الأنعام ١٥٣) .

وروى عن رسول الله ــ ﷺ ــ : " يحمل هذا الدين من كل خلف عدو لــه ينفون عنه تأويل المبطلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال الجاهلين ، كما ينفي الكــير خبث الحديد " [1]

---

(١) الحديث ورد في مشكاة المصابيح للتبريزي ٤٨ ، وكنز العمال للمتقي الهندي ٢٨٩١٨ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣٧/١٠ .

٢٨٨ وعلى أساس الأصالة نستطيع أن نميز الفكر الفلسفي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والأخلاقي والقانوني وغيره ، فنصف الملتزم منه بالإسلام ، بأنه إسلامي وأصيل ، ونسلب هذه الصفة عن الفكر غير الملتزم منه بالإسلام ، فلا نصفه بأنه إسلامي ، وإن أنتجه كاتب أو مفكر يعتنق دين الإسلام ، فشخصية وهوية الفكر الذاتية هي التي تمنحه الصفة ، وليس هوية الكاتب العقائدية ، مازالت لا تتجسد في الإنتاج الفكري أو الأدبي أو الفني .

ولذا أفتى الفقهاء بحرمة كتب الضلال على من لا يستطيع الرد عليها ، وكذا حفظها أو نشرها ، ومن هنا كانت المسؤولية في حماية أبناء أمتنا من الانحراف الفكري ، ومن أن يفقدوا الأصالة والنقاء الفكري ، ومن ضياع الهوية العقائدية نتيجة لتناولهم المفاهيم والأفكار والنظريات والآداب والفنون غير الإسلامية المطروحة في السوق الفكرية ، بل وفي المدارس والجامعات ومعاهد الفكر والفن والأدب والمعرفة ووسائل الدعاية والأعلام ، الخ . غير الملتزمة بالخط الإسلامي الأصيل ، من هنا كان علينا أن نتخذ الوسائل الوقائية والأساليب التحصينية التي تحفظ أصالة التيار الفكري والثقافي الإسلامي .

إن الأصالة الفكرية المطلوبة توفرها تتحدد في ثلاثة مراتب هي ،

١ ـ مرتبة التمييز بين ما هو إسلامي ، وما هو غير إسلامي ، وما هو صحيح وما هو غير صحيح ، وهي أدنى مراتب الأصالة الفكرية التي تحفظ سلامة الشخصية الفكرية والمعرفة الإسلامية ، فالإنسان المسلم عندما يتعامل مع الفكر الذي بين يديه من اقتصاد أو اجتماع أو سياسة أو علم نفس أو نظرية فن أو أدب أو فلسفة أو قانون أو غير ذلك ، يستطيع أن يفرز ويميز ، أن هذا الفكر فكر إسلامي قائم على أسس إسلامية ، وإن ذلك الفكر فكر غير إسلامي ، ومخالف للقيم والموازين والأسس الإسلامية ، بما يملك من أسس فكرية ، ومنطلقات عقائدية، وموازين مبدئية .

٢ ــ مرتبة النقد والمحاكمة : والمرحلة الثانية من مراحل الأصالة والنقاء الفكري ، هي مرحلة النقد والمحاكمة للأفكار والمفاهيم والنظريات الغريبة على روح الإسلام وأسسه الفكرية .

إن لهذه المرحلة من مراحل الأصالة الفكرية ، دورا أساسيا وهاماً في حماية التفكير الإسلامي والشخصية الفكرية الإسلامية والأصالة الرسالية والحياة الاجتماعية والحضارية للأمة الإسلامية .

ومنذ أن بدأ التسرب الفكري والحضاري الأجنبي في منتصف القرن الأول الهجري ، كنشوء فكرة الجبر والتفويض ، ونشوء فكرة المرجئة ، وعندما بدأ الاحتكاك فيما بعد بالفكر اليوناني المترجم من فلسفة ومنطق وعلم الأخلاق .. الخ ، والفكر الفارسي والهندي ، وحاول من دخلوا الإسلام من اليهود والنصارى واتباع النحل المختلفة ، إدخال مذاهبهم الفكرية ومعتقداتهم الأسطورية ومفاهيمهم عن الحياة والكون . بدأ الصراع مع هذا الوافد الفكري الغريب ، ومع تلك المحاولات التخريبية الهدامة بدأ النقد والتمحيص والرد الحاسم من قبل الأمة والعلماء والمفكرين الإسلاميين ، فكان للعمل النقدي والجهد التمحيصي دوره وأثره في حفظ الأصالة وحماية الفكر والتفكير الإسلامي من الاختلاط والتشويش والانحراف . وعلى امتداد مسيرة الفكر الإسلامي كان النقد منهجاً علمياً أساساً في حفظ علوم الشريعة ومبادئها وحماية الحضارة والثقافة والحياة الإسلامية .

فقد مارس العلماء والفلاسفة والمفكرون هذا المنهج النقدي والدفاعي في دائرتين اثنتين هما :

١ ــ في الدائرة غير الإسلامية ، وذلك بالرد على الأفكار والنظريات والشبهات المتسللة إلى الكيان الفكري الإسلامي ، كالفلسفات والنظريات والمفاهيم والمعتقدات الوافدة الغريبة على الفكر والأصالة الإسلاميين .

٢ ــ أما في إطار الدائرة الإسلامية فقد اعتمد المفكرون الإسلاميون من فقهاء وعلماء حديث ومفسرين وفلاسفة وكلاميين وأصوليين وغيرهم ، هذا المنهج النقدي للحفاظ على أصالة الشريعة الإسلامية وحمايتها من المدسوسات والأهواء

والشطحات المقصودة وغير المقصودة ، كما أنشئوا علم الرجال والحديث وعلم الخلاف الفقهي ، وعقدوا الدراسات المقارنة في مجال الفلسفة والكلام وعلم أصول الفقه ، واعتمدوا النقد منهجاً للبحث وتثبيت الآراء . فغدا هذا المنهج أساساً للبحث والتفكير . فترى الباحث في الفقه والأصول والكلام والفلسفة والحديث وفلسفة الأخلاق والتاريخ والتفسير ، بل وحتى في اللغة ، لا يثبت رأيه إلا بعد أن يستعرض الآراء ويناقشها بدقة وإمعان نظر ، ليخلص إلى الرأي المختار ، أو المستنبط المستقل ، حتى ليفهم المتتبع لهذا المنهج العلمي الدقيق أن الرأي العلمي للباحث والمفكر الإسلامي في أي فن وعلم ومجال من مجالات المعرفة هو خلاصة التأمل والنقد والتمحيص ، وبهذا المنهج العلمي حقق العلماء والمفكرون الإسلاميون الأصالة والنقاء للفكر الإسلامي ، مما يفد عليه أو يعلق به أو يدس فيه من خارجه ، أو ما أفرزته شطحات العقل وتجاوزات التفكير غير الملتزم ، أو شطحات الباحث في إطار الإسلام العاجز عن اكتشاف الحقيقة والالتزام بموازين الأصالة والنقاء ، فنشأت حركة فكرية نقدية ودفاعية نشطة وفعالة ، حققت أهدافها الرسالية الملتزمة بدقة وفعالية .

وكما هو واضح لكل باحث ومتتبع إن الصراع الفكري والحضاري والعقائدي بين الإسلام وخصومه لم يهدأ منذ نشأته وحتى اليوم [1]، لذا كان للغزو الفكري والحضاري الأوربي عمله وفعله التخريبي المخطط ضد الإسلام ورسالته وحضارته ، وكان هذا الغزو أشد خطرا من محاولات الغزو الفكري والحضاري في المرحلة الإسلامية الأولى [2]، حيث كان المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة يملك المناعة والحصانة الفكرية بشكل قوي مما كان عليه المسلمون في مرحلة الغزو الفكري الأوربي ، وكان المسلمون في المرحلة الأولى هم القوة السياسية الدولية

---

(١) راجع : الأساليب الحديثة للدكتور سعد الدين صالح ص ١٨ وقادة الغرب يقولون لجلال المعلم ص ٢٨ .

(٢) الأساليب الحديثة للدكتور سعد الدين صالح ص ٣٩ طبع ٣ سنة ١٤١٥/١٩٩٥ والغزو الفكري في التصور الإسلامي للدكتور أحمد عبد الرحيم السايح ص ١٤ هدية مجلة الأزهر جمادي الأولى سنة ١٤١٤هـ .

المنتصرة والمتفوقة ، وهم حاملو مشعل الحضارة والدعوة إلى الإسلام ، والمتصدين لقيادة البشرية ، فكان الشعور بالتفوق ، وكانت المنعة والحصانة النفسية إحدى دعائم تحقيق الأصالة ، بالإضافة إلى قوة الفكر ، وتصدي الأئمة والعلماء والمفكرون الإسلاميون الملتزمون ، فانهزم التيار الغريب الوافد ، وتخلص الفكر الإسلامي من أثره ودوره السلبي ، بعد فرزه وتشخيصه ورفضه ، كما استفاد الفكر الإسلامي نتيجة هذا التلاحم والتفاعل ، قوة وفاعلية وعطاء ، فاتسعت دائرته ، وكثرت موضوعاته ومعالجاته ، وقويت مناهجه وقدراته على الدفاع والرد وتثبيت معالم الشخصية الإسلامية للفكر والثقافة والحضارة .

واستطاع الفكر الإسلامي أن يذيب ويهضم ويمتص ويتمثل المناسب من الفكر الوافد على الفكر الإسلامي وإدخاله في بنيته الإسلامية بعد أن نقح وغربل ، وأعيدت صياغته وهندسته على أسس إسلامية ملتزمة .

وفي مرحلة الغزو الفكري الغربي المخطط والمدروس والمستهدف محو الشخصية الفكرية الإسلامية وتغييب هويتها ، عملت المؤسسات الفكرية الأوربية ، كالجامعات ومؤسسات البحث والمؤسسات الدعائية المضللة كالصحافة والمسرح ودور النشر والسينما والأحزاب والحركات السياسية التي تحمل الفكر الأوربي والنظريات الأوربية كالديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقومية والعنصرية والإقليمية ، على نشر الفكر والنظريات والمفاهيم الأوربية .

فطرحت النظرية الماركسية ، والنظرية الرأسمالية ، والفكر العنصري والإقليمي في مجال السياسة والاقتصاد وفلسفة التاريخ كما طرحت النظريات الفلسفية التي تفسر الوجود والمعرفة والسلوك والأخلاق والطبيعة والمعارف الإنسانية المختلفة ، كعلم النفس والاجتماع ونظريات الأدب والفن والثقافة .. الخ كبديل للفكر والمعرفة والثقافة والمعرفة والحضارة الإسلامية ، وإفراغ الإنسان المسلم والمجتمع المسلم من محتواه الرأسمالي ، وطرح الفكر الأوربي بديلا له .

وقد صمد المفكرون وعلماء الأزهر الشريف والكتاب الإسلاميون الملتزمون والحركات السياسية الإسلامية ومؤسسات العلم الإسلامية بوجه هذا التيار ،

فتمكنوا من فرز وإيجاد نهضة فكرية إسلامية ، وتحقيق الأصالة الحضارية والثقافية ، والحفاظ على الهوية الإسلامية للفكر والمعرفة وفلسفة الحياة مرة أخرى . قال تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(الأنبياء ١٨) ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ {٣٢}﴾ (التوبة ٣٢).

وهكذا نجد قوة وحيوية الفكر الإسلامي ، وقدرته على الإبداع والعطاء وحفظ الأصالة واستقلال الهوية ، رغم الزوابع والعواصف الهوجاء ، ومحاولات المسخ والاستبدال .

٣ ــ مرحلة الاستنباط وتأسيس النظرية :

أما المرحلة العليا من مراحل الأصالة الناضجة والمكتملة ، فهي مرحلة الاستنباط والتأسيس والابتكار .

تأسيس الفكر والنظرية واستنباطها من أصولها الإسلامية ، وأمام الفكر الإسلامي اليوم مهام نظرية وحضارية كبرى ينبغي أن تتناسب وحجم الإنتاج الفكري والحضاري القائم على أسس غير إسلامية ، وتتجاوب مع الحاجة الفكرية والحضارية والحياتية التي يواجهها الإنسان اليوم ، في مجال الفلسفة والأخلاق والاقتصاد والسياسة والنفس والأعلام والرأي العام والاجتماع وفلسفة التاريخ والفن والأدب والمسائل والقضايا الاجتماعية التي تواجه الإنسان اليوم .. الخ

إن استنباط وصياغة النظرية الإسلامية الملتزمة بالنقاء والأصالة وتأسيسها في مثل تلك المجالات لا يمكن أن يتوفر إلا للمفكر الإسلامي الذي يملك عدة مؤهلات أساسية هي :

١ ــ الإحاطة بمصادر الفكر والتشريع الإسلامي ، وبما أفرزه الفكر الإسلامي في مجال البحث والتنظير الخاص بذلك الموضوع الذي يريد الشروع بتأسيس واستنباط النظرية المتعلقة به ، وأن يكون إحاطته بالمستوى الذي يمكنه من استنباط النظرية المراد استنباطها

٢ ــ الإطلاع على البحوث والدراسات والنظريات التي طرحها الباحثون والمتخصصون في ذلك المجال من غير الإسلاميين .

٣ ــ منهج علمي وطريقة تفكير إسلامية تمكنه من الاستنباط وبناء البحث والنظرية .

٤ ــ ملكة استنباطية وقدرة علمية على الفهم والاستنباط .

من أجل تحقيق الأصالة الفكرية :

ليس من السهل على المتعلم والقارئ ، ومن يسعى لتحصيل وكسب الفكر والمعرفة وغيرهم من أبناء الإسلام ، أن يحقق لنفسه الاصالة الفكرية في خضم تلك التراكمات والاطروحات الفكرية والحضارية التي تزخر بها الكتب وتبثها وسائل النشر والدعاية والمدارس والاحزاب والحركات غير الإسلامية .

فالكثير من أولئك يواجه خطر التشويش والاضطراب الفكري خصوصاً من يلجأ إلى التحصيل الذاتي في اكتساب المعرفة ، ولا يتلقاها على يد أساتذة إسلاميين ملتزمين ، أو من مصادر نقية أصيلة ، ويتلقى الأفكار والمفاهيم كمسلمات علمية ومعرفية صحيحة من أي مصدر يتلقاها ، إن لهذا النمط من تحصيل المعرفة مخاطر على الأصالة والنقاء الفكري والثقافي ، لذا يجب على من يبحث ويسعى لتحصيل الفكر والمعرفة والثقافة أن يكون حذراً من الوقوع في شراك المخططات والسموم الفكرية التي تبثها المؤسسات والمصادر الفكرية غير الإسلامية .

إن هناك مبادئ أساسية تحقق لنا الأصالة الفكرية وتحمي الفهم والفكر من خطر الانحراف والاضطراب .

وهذه المبادئ هي :

١ ــ الانطلاق من الإيمان بوجود مدرسة فكرية إسلامية وشخصية ثقافية إسلامية مستقلة .

وهذا المبدأ جعل المسلم يبحث عن الفكر والرأي الإسلامي المتميز من بين الآراء عندما يقرأ أو يدرس أو يبحث في أي مجال من مجالات الفكر والثقافة .

٢ ــ أن يبدأ عندما يريد تكوين ثقافة ومعرفة إسلامية بالفكر والثقافة الإسلامية الأصيلتين ، ليكون لنفسه الأسس والمنطلقات والموازين الفكرية الأساسية التي تمكنه من حفظ أصالته الفكرية والثقافية .

٣ ــ القراءة النقدية الواعية لما يقرأ ويتلقى ، ليكون تلقيه للفكر والمعرفة تلقياً واعياً ، قائماً على أسس وموازين فكرية أصيلة ، ليستطيع على ضوء الأسس والأصول والموازين الإسلامية من أن يحاكم الأفكار والآراء ، ولا يتقبل إلا النفي المنسجم مع عقيدته ومبادئه الإسلامية وهكذا يحقق لنفسه الأصالة والنقاء الفكري.

٦ ــ ومن خصائص الفكر الإسلامي أنه فكر يقبل النمو والعطاء:

ويشهد تاريخ الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بل وتاريخ الفكر الإنساني بهذه الحقيقة الرائعة .

ونحن نستطيع أن ندرك هذه الصفة ــ صفة القابلية للنمو والعطاء في الفكر الإسلامي ، إذا عرفنا أن مصدر هذا الفكر ، هو المعين الذي لا ينضب ، وهو كتاب الله والوحي الذي أنزل على معلم البشرية وهادي الإنسانية محمد ــ ﷺ وإن جميع العلوم والمعارف التي أنتجها الفكر الإسلامي ترد إلى القرآن الكريم ، فهو أصلها ومنبعها ومقياس الضبط والالتزام لها .

عند دراسة وتحليل هذه البنية العلمية لصرح الفكر الإسلامي بما حوى من علم التفسير والفقه وأصوله ، وعلم النفس وعلم التاريخ وعلم الاجتماع ونظريات السياسة والاقتصاد ومعارف أخرى ، نشاهد ظاهرة التوالد الموضوعي والفكري وصفة الخصوبة والنمو المستمر والقدرة على العطاء والمواجهة وحماية التراث وتغطية حاجة الإنسان بامتداداتها العقلية واتساعها الاجتماعي (الموضوعي) ويكمن سر هذا النمو في الفكر الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية في أسباب عديدة نذكر أهمها :

١ ــ شمولية الأسس والأصول الفكرية وغناها العلمي .

٢ ــ إباحة الإسلام لعملية الاجتهاد ورضاه بنسبة ما ينتج عن الاجتهاد إلى الإسلام ، واعتباره إسلامي المذهب والاتجاه وأنه يشكل الامتداد الفكري للأصول والأسس الإسلامية ، مادام محافظاً على الالتزام ، وجارياً وفق منهج صحيح في الفهم والطرق والاستنباط .

٣ ــ اهتمامه بتطوير الحياة وتنميتها ، ودعوته إلى التحــرك ، وتحريــك العقل ، ورفضه للجمود والتوقف .

فهذه العناصر مجتمعة قد وهبت الفكر الإسلامي تلك القابلية وذلك العطــاء المتحرك . فلم تعد هناك مشكلة يعاني منها الفكر الإسلامي ، كتلك التي تعاني منها النظريات والمبادئ الوضعية ، وهي عقمها وعدم قدرتها على العطاء والنمو ، لضيق أفقها . ومحدودية نظرها ، في حين نجد الخصوبة والقــدرة الامتداديــة في الفكــر الإسلامي على استيعاب الحركة العقلية والاجتماعية بشكل واسع وعميق .

إن عمى الأسس والأصول الإسلامية التي حواها كل من القــرآن والســنة ، واستيعابها لخبرين لا بنصب من الأفكار والمفاهيم ، هو المادة الأساسية لكل ذلــك النمو العطاء في الفكر الإسلامي وقدرته على تغطية المساحات الحياتية الشاسعة من نشاط الإنسان ونمو حياته ، ولولا اعتراف الرسالة الإسلامية بدور العقل ، وحثهــا على التفكر والتأمل والاستنتاج ، وإقرارها لعلمية الاجتهاد والاستنباط من الأسس والأصول والمصادر الأساسية (الكتاب والسنة) لما أمكن للفكر الإسلامي والمفكــر المسلم ، أن يمتد بنشاطه إلى كل جانب ومسألة ومشكلة تواجه الإنسان في مجــال العقيدة والتفكير والتشريع ونظام الحياة وفنونها المختلفة ، ليعالجهــا عــن طريــق الاجتهاد والاستنباط والاستفادة

وهكذا وجد المفكر والباحث المسلم أمامه مادة فكريــة أساســية ، وتخــويلا شرعيا في البحث والاستنباط وإضافة النتائج إلى الإسلام ، كلما واجهته مشــكلة فكرية ، أو مسألة اجتماعية أو حضارية

٧ ــ وحدته وترابطه :

ومن الخصائص التي يتميز بها الفكر الإسلامي أنه منظومة فكرية تشكل وحدة بنائية متكاملة يؤثر بعضها ببعض ، ويكمل بعضها البعض الآخر ، فمــثلا فلســفة الأخلاق وقيمها ترتبط بعقيدة التوحيد وبصفات الله وتتأثر بها[1] .

---

(١) راجع دراسات أخلاقية للدكتور عبد الحميد مذكور ص ١٤٠ .

٢٩٦ وهذه الأخلاق وقيمها تؤثر في الجانب القانوني والتنظيمي ، والجانب الاقتصادي يرتبط ويتأثر بالفكر التعبدي ، ومفهوم العبادة ، روح تسري في كل نشاط وتفكير يقوم به الإنسان على أسس إسلامية ، لذا فإنه لا يمكن التفكيك بين مجالات الفكر المختلفة ومساحات نشاطه من الناحية النظرية والتطبيقية .

فمثلا ملكة العدالة الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام ، واعتبرها أساساً في سلوك الإنسان ، تؤثر بشكل فعال في سلوك الفرد الاجتماعي والسياسي ، وعلاقته بأفراد أسرته ومجتمعه .

وفريضة الزكاة التي أوجب الإسلام أداءها يتجلي فيها الترابط والتفاعل بين العبادة وأخلاقية الكرم والرحمة والتنظيم الاقتصادي.

وهكذا تساهم هذه الصفة ، صفة الوحدة والترابط في الفكر الإسلامي في مجال الأعداد للتطبيق وتوفير المناخ المناسب للالتزام ، فكل جانب يهيئ المجال ويعد الإنسان لقبول الجانب الآخر ، ويساعد على إنجاحه .

فالأخلاق والتقوى مثلا تهيئ المجال لنجاح النظام السياسي والاقتصادي والعلاقات الاجتماعية .

والإيمان بالله وبعالم الآخرة يهيئ الإنسان لاحترام القانون وفعل الخير والابتعاد عن الجرائم والمعاصي والشرور [1].

وهكذا نشاهد الترابط والتكامل والتأثير بين مجالات الفكر المختلفة .

كيف بحث المفكرون الإسلاميون القضايا الفكرية ؟ وما المنهج الإسلامي الذي اتبعوه في البحث والتفكير ؟

من المعروف أن منهج البحث أو الطريقة التي يتبعها الباحث في تنظيم وإجراء بحوثه للحصول على النتائج التي يستهدف الوصول إليها ببحثه ، تؤثر تأثيرا مباشرا على النتائج والإنتاج العلميين ، فبقدر ما يكون البحث قائماً على أساس منهج سليم ، ومناسب للموضوع الذي يبحث فيه ، يكون البحث منتجاً ، وموصلاً إلى

---

(١) راجع : العقائد الإسلامية للسيد سابق ص ١١ دار الفتح للإعلام طبعة عاشره سنة ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

نتائج صحيحة سليمة من الناحية العلمية ، ومساعداً على اكتشاف القواعد والأسس العلمية وصياغتها .

لقد عرف منهج البحث العلمي بأنه : (الطريقة التي يتبعها العلماء في وضع قواعد العلم ، وفي استنتاج معارفه على ضوء تلك القواعد) [١]

وللمنهج أثره ودوره الكبير في أصالة الفكر وسلامة الأفكار والمعلومات والنظريات والمفاهيم المستنتجة . فما لم يكن منهج البحث والتفكير إسلاميا أو موافقاً لاتجاهه ، فأن النتائج لن تكون صحيحة ومنسجمة مع روح الإسلام .

إن مناهج البحث في العلوم والمعارف بصورة عامة تقسم بطبيعتها إلى قسمين هما :

١ ــ المناهج العامة (المناهج المنطقية) : وهي الطرق العامة للبحث العلمي التي تشمل كل العلوم والمعارف البشرية

٢ ــ المناهج الخاصة (المناهج الفنية) : وهي الطرق الخاصة للبحث العلمي التي تختص بعلم معين ، كالتاريخ والفيزياء والعقيدة والفلسفة وأصول الفقه .. الخ

إن من الواضح أن هناك مبادئ أساسية تشترك فيها العلوم والمعارف البشرية جميعها ، وهي القواعد المنطقية الكلية التي يدرسها علم المنطق ، إذا عرف المنطق بأنه (علم تدرس فيه القوانين العامة للتفكير السليم) [٢] .

ومن الأساسيات في منهج التفكير العلمي المشترك بين كافة البحوث والدراسات العلمية هو الانطلاق من مبدأ التوقف في كل قضية حتى تثبت صحتها بالدليل ، والتسليم بمبدأ السببية والتعليل القائم على أساس أن التفكير البشري بطبيعته يجري على أسس وقوانين منطقية .

وحينما نستخدم تلك القوانين ــ قوانين المنطق أو التفكير السليم ــ في البحث العلمي ، وفي كل علم ومجال من مجالات التفكير ، فستجري البحوث على أسس صحيحة وتعطي نتائج صحيحة .

---

[١] عبد الهادي الفضلي / خلاصة المنطق / ص ١٢٣ / مطبعة الآداب ١٣٨٥م .

[٢] راجع : المنطق والفكر الإنساني للدكتور عبد السلام محمد عبده ص ٢٧ طبع ثانية سنة ١٩٨٠م.

٢٩٨ كما أن من الواضح أيضاً أن لكل علم ومعرفة من العلوم والمعارف البشرية منهج بحث خاصاً به ومناسباً له ، يستخدمه العلماء والباحثون في ذلك الموضوع ، فمنهج البحث في العلوم المادية ، كالطب والفيزياء والكيمياء يختلف في بعض جوانبه عن منهج البحث في التاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة والعقيدة .. الخ .

ونحن عندما نبحث في الفكر الإسلامي ، كالعقيدة والفقه وأصوله والتفسير والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم الأخلاق والتاريخ والرواية ، لابد وأن نحدد الأسس العلمية ، لمنهج البحث لنصل إلى نتائج علمية دقيقة من الناحية العلمية وسليمة من حيث صفتها الإسلامية ، أي لابد من أن تحقق في البحوث والنظريات والدراسات الإسلامية جانبين هما :

١ ــ العلمية والواقعية .

٢ ــ الالتزام والأصالة الإسلاميان .

وبعد هذا التقديم نعرف أن هناك أسساً علمية عامة تشترك فيها البحوث والدراسات والنظريات العلمية كافة ؛ المادية منها كالفيزياء والطب والفلك والكيمياء ، أو الإنسانية كالاقتصاد والأخلاق والفلسفة والعقيدة والاجتماع والفقه والقانون والتاريخ .. الخ

فكل تلك العلوم تشترك في مبادئ ومسلمات أساسية ، كالتسليم بالسببية وقانون العلية ، وكالتسليم بعدم التناقض ، وكالانطلاق من مبدأ التوقف في كل قضية حتى تثبت صحتها بالدليل .. الخ

فالعلوم والمعارف جميعها تنطلق من تلك المسلمات والأسس ، كبحوث الفيزياء والإيمان بالله والدراسات التاريخية والفقهية والهندسية والطبية .. الخ

وقد أكد هذه الحقيقة جملة من العلماء والباحثين في علوم الطبيعة والعلوم الإلهية والإنسانية على حد سواء .

ننقل من هذه الآراء :

يقول أندرو كونواء إيفي العالم الفسيولجي : (... حقيقة إن رجل العلوم يستخدم فكرة الآلية بوصفها إحدى وسائله أو أدواته ، فهو يتكلم مثلا عن آلية

الجسم ، ولكنه يجري بحوله على أساس مبدأ السببية ، مبدأ السبب والنتيجة ، على أساس وحده الكون وما يسوده من القانون والنظام ، وهو كأي إنسان آخر يتخذ كل قرار ، ويفكر في كل أمر على أساس مبدأ السببية) [١]

ويقول أيضا : (... وليس من العجيب أن تجد أن قانون السببية الذي يعد أساساً في فهم ظواهر الكون المادي ، والذي يتحكم في النبات والحيوان ، والذي يتكون العقل الإنساني بمقتضاه ، هو ذاته القانون الذي نستطيع أن نصل به إلى إدراك قيم القانون الأخلاقي الطبيعي القائم على المحبة والعدل والرحمة والحقوق والمسؤوليات والجمال، بل هو ذاته القانون الذي يوصلنا إلى إدراك وجود الله ..)[٢]

ويقول جورج هربرت أستاذ الفيزياء التطبيقية :

(أحب أن ألفت الأنظار إلى أن طريقة الاستدلال التي نستخدمها في علوم الرياضة ، فمن المعروف في علم الهندسة ، أننا نستطيع أن نبني كثيراً من النظريات على عدد قليل من البديهيات ، أو تلك الفروض التي نسلم بها ، ونقبلها دون مناقشة أو جدال حول صحتها ، فالعلماء يسلمون أولاً بالبديهيات ثم يتبعون مقتضياتها ، أو النتائج التي تترتب عليها ، وعند إثبات نظرية نجد أن برهانها يعتمد في النهاية على مسلمات أو أمور بديهية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله ، فوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية ، والاستدلال بالأشياء على وجود الله — كما في الإثبات الهندسي — لا يرمي إلى إثبات البديهيات ، لكنه يبدأ بها ، فإذا كان هنالك اتفاق بين هذه البديهية ، وبين ما نشاهده من حقائق هذا الكون ونظامه يعد دليلا على صحة البديهية التي اخترناها ...) [٣]

وهكذا نفهم أن منهج البحث والتفكير الإسلامي في شتى المجالات يشترك مع العلوم الطبيعية والمادية في الأسس العامة ويبتنى عليها .

---

[١] راجع اندرو كونواء ايفي / الله يتجلى في عصر العلم / ص ١٥١ .

[٢] اندرو كونواء ايفي / الله يتجلى في عصر العلم / ص ١٥٧ .

[٣] راجع جورج هربرت / الله يتجلى في عصر العلم / ص ٧٩ .

٣٠٠ فالباحث الإسلامي الذي يستهدف دراسة العقيدة الإسلامية أو اكتشاف نظرية في الأخلاق أو الاقتصاد والفن والاجتماع والسياسة وعلم النفس والسلوك .. الخ ، عليه أن يسير :

١ ــ وفق الأسس العامة لمنهج البحث المنطقي .

٢ ــ وفق الأسس الخاصة لذلك العلم وتلك المعرفة ، كالتفسير والتاريخ والرواية والعقيدة .

فبالتنسيق بين الأسس العامة والخاصة ، يستطيع أن يوفر لنفسه منهجاً سليماً للبحث والتحقيق العلمي ، وبناء النظرية الإسلامية والفكر الإسلامي المستنتج على أسس علمية صحيحة .

إن منهج البحث والتفكير الإسلامي يبتني على الانطلاق من أساسين اثنين هما :

١ ــ البديهات العقلية المسلم بها .

٢ ــ الأسس والكليات الإسلامية الثابتة لديه ، كالآيات القرآنية أو السنة الصحيحة ... الخ

إن المفكر الإسلامي والباحث في العلوم والمعارف الإنسانية على أسس إسلامية يجد أمامه المجالات والموضوعات الآتية :

١ ــ دراسة الواقع الإنساني والاجتماعي وما يحتاجه الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية .

٢ ــ الدين (القرآن والسنة والاستنباط منهما) وعليه أن يقيم دراسته وأبحاثه ونظرياته على أساس الرؤية الإسلامية الواردة في القرآن والسنة المعبرة عن الحقيقة العلمية للنظام والحياة الإنسانية .

فبالتأمل في هذه الحقائق ودراستها ، نجد أن الدين مجموعة من القوانين والأفكار والقيم والمفاهيم التي تنظم اتجاه التفكير والنفس والمجتمع ، وتوجه حركتها ونشاطاتها المختلفة .

إن الأفكار والنظريات والدراسات الإسلامية المتعلقة بالواقع الإنساني والاجتماعي كلها تقع في دائرة الدين الإسلامي . وعلى ضوء الأسس والمقررات الفكرية التي يقررها هذا الدين العظيم .

وقد أسس علماء الإسلام المناهج العلمية ، وطرق البحث والتفكير الموصلة إلى النتائج والأفكار الإسلامية الملتزمة [١] .

وقد استخدم العلماء منهجي الاستقراء والقياس كأداة للاستنباط واكتشاف الأفكار والنتائج بشكل واسع ودقيق ، ومن الجدير بالذكر أن هذين المنهجين (الاستقراء والقياس)هما المنهجان المتبعان في العلوم والمعارف المادية والإنسانية كلها.

---

(١) يراجع في ذلك البحث العلمي ومناهجه النظرية للدكتور سعد الدين صالح ص ٩ وما بعدها طبعة أولى دار عراي للطباعة والنشر سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م والبحث العلمي للدكتور احمد جمال الدين طاهر ص ٩ طبع دار الشروق بجده سنة ١٩٧٩ والبحث العلمي ومناهجه ص ١٠ وما بعدها والإسلام والفكر العلمي للدكتور محمد المبارك ص ١٦ طبع دار الفكر بيروت لبنان سنة ١٩٨٧م والبحوث الأدبية ومناهجها للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٩ وما بعدها .

خاتمـــة

بعد هذا العرض المتقدم لهذا البحث نستطيع أن نخلص في نهايتـــه إلى النتـــائج الآتية :

١ ــ أنه ليس كل ما أنتجه المسلمون من فكر يصـــح أن نصـــفه بأنـــه إسلامي وأما ما يوصف بذلك فهو الفكر الذي إنطلق من مفاهيم الإسلام الثابتـــة القاطعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الملتزم بالإسلام

٢ ــ أن العرب قبل الإسلام كان لديهم من خلال ما تدل عليه آثارهم الأدبية تثبت بأنواع من النظر العقلي الذي يشبه أن يكون من أبحـــاث مـــا وراء الطبيعة التي بحثها الفلاسفة .

٣ ــ أن الفكر الإسلامي اعتمد على مصادر حية غنية معطاءة أكســـبته كل عناصر القوة والإبداع والنمو المستمر .

٤ ــ إن العقل له دور رئيسي وكبير في مجال الفهم والاستنباط الفكري ساهم في بناء صرح الفكر الإسلامي .

٥ ــ إن الفكر الإسلامي يمتاز بميزات كثيرة وصفات نوعيـــة واضـــحة تميزه عن غيره من الأفكار والنظريات .

والنشر والتوزيع

محمد الغزالي ، طبعة

ت .

الفكر العربي .

د : طبع الجمعية

محمد ناد ، طبعة دار الهلال

د/ فتحي الدريني طبعة

اب سنة ١٣٨٥هـ

بن صالح عبد الله ، طبعة

زيد الكيلاني وآخرون ،

/١٩٨٨م .

عبد الهادي ، و د/وفاء

ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة المحمدية : محمود أبو شهبة ، طبعة ثانية دار القلم دمشق سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

ـ الشعر الجاهلي : طه حسين / طبع القاهرة .

ـ صحيح البخاري : الإمام محمد بن إسماعيل البخاري طبع دار الشعب بدون تاريخ .

ـ صحيح مسلم : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

ـ العقل وفهم القرآن : الحارث بن أسد المحاسبي طبعة ثانية ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م دار الفكر للطباعة والنشر .

ـ علوم القرآن الكريم : د/ عبد المنعم النمر ، طبعة ثانية سنة ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م دار الكتب الإسلامية .

ـ العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي طبعة أولى سنة ١٤٠٢هـ / طبع دار الهلال .

ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني طبعة أولى دار الغد العربي سنة ١٩٩٢م .

ـ الفصل في الملل والنحل : ابن حزم ، مكتبة السلام العالمية .

ـ فقه السيرة : د/ محمد رمضان البوطي ، طبعة سادسة سنة ١٤١٣هـ /١٩٩٩م دار السلام للطباعة والنشر .

ـ الفكر الديني الجاهلي : د/ محمد إبراهيم الفيومي ، طبعة ثالثة سنة ١٩٨٢م طبع دار المعارف القاهرة .

ـ الفلسفة الإسلامية في المشرق : د/ محمد إبراهيم الفيومي

ـ القاموس المحيط : مجد الدين الفيروز أبادي ، الطبعة الأولى دار إحياء التراث العربي بيروت .

ـ لسان العرب : ابن منظور : تحقيق أمين عبد الوهاب وآخر ، طبعة ثانية سنة ١٤١٨هـ /١٩٩٧م دار إحياء التراث العربي بيروت .

ـ مختار الصحاح : الرازي ، طبع مكتبة لبنان بيروت سنة ١٤١٥هـ /١٩٩٩م ، ت / محمود خاطر .

ـ المدخل للتشريع الإسلامي : د/ محمد فؤاد البنهان ، وكالة المطبوعات .

ـ المغرب في ترتيب المعرب : أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد المطرز طبعة أولى سنة ١٩٧٩م نشر مكتبة بسام بن زيد .

ـ الملل والنحل : الشهرستاني : تحقيق عبد العزيز الوكيل نشر الحلبي القاهرة.

ـ مناهل العرفان : الزرقاني ، طبع دار إحياء الكتب العربية الحلبي .

ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : د/ جواد علي .

ـ المنجد : الأب لويس معلوف اليسوعي سنة ١٩٠٨ م المطبعة الكاثوليكية بيروت .

ـ نهج البلاغة : الإمام علي بن أبي طالب ، تنظيم د/ صبحي الصالح طبعة أولى .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٢
مقدمة	٣
الفصل الأول : التعريف بالفكر الإسلامي	٦
الفصل الثاني : مكانة العرب الفكرية في الجاهلية	٢٣
الفصل الثالث : مصادر الفكر الإسلامي	٤٩
الفصل الرابع : خصائص الفكر الإسلامي	١١٢
خاتمة	١٤١
أهم المراجع	١٤٢
فهرس الموضوعات	١٤٦